

# 100 ساعة على الحروف

وقائع المأساة السورية من المنفى

علاء البري



ليبيت للنشر  
والتوزيع

١٠٠ ساعة على الحدود  
وقائع المأساة السورية من المنفي  
مدقق لغوي أ. محمد فهمي  
رقم إيداع ١٣٥٠٦ / ١٥٢٠١٥ ط  
الترقيم الدولي / ٣-٠١٦ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

---

ليليت للنشر والتوزيع  
الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 - 012242723

[lilitepublishing@gmail.com](mailto:lilitepublishing@gmail.com)

[www.lilithbook.com](http://www.lilithbook.com)

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي  
صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو في وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة  
. كتابية من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

## إهداء

إلى التي سرتني دومًا بتألقها وتوهجها ..  
إلى روح أُمِّي التي مُدَّت جذورها في حناياي  
وزُرعت داخلي  
وإلى أبي الذي وهبني عطاياه بلا حدود  
وإلى ورداتي الثلاث: رويدا وهنا ومملك.



## فاتحة القول

«الاستبداد أعظم بلاء؛ لأنه ولاء دائم بالفتن، وجذب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق متواصل بالسلب والغضب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمي الأبصار».

عبد الرحمن الكواكبي

«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»

(٥٥٨١ - ٢٠٩١ ميلادية)



## الرحلة

بدأت الرحلة الشائكة إلى الحدود السورية الأردنية التي ظننت كثيراً في بدايتها أنها مجرد مهمة عمل سأقوم بها بتغطية صحفية عادية مثل عملي الاعتيادي الذي ألفه عن ظهر قلب وبكل ما يحتويه حتى من المفاجآت والأحداث غير السارة، بمظاهر لافتة من الحفاوة والرفاهية ، الأمر الذي أقلقني؛ لأنني لن أجد ما يعينني على تنفيذ ما كنت أخطط له من إعداد ونشر موضوعات صحفية مغايرة عن تلك التي كنت أقدمها لصحيفة «الخليج» الإماراتية التي كنت أعمل بها حينها، وهي الموضوعات التي كنت أصفها بأنها بلا بهارات.

توجهت في الصباح الباكر يوم الاثنين الموافق ٨١  
أغسطس ٢٠١٢ إلى مطار العاصمة أبوظبي، فوجدت مسؤولاً  
بالهلال الأحمر الإماراتي المنظم للرحلة ينتظرنني بشغف  
واستقبال حار بالمطار، وأنهيت إجراءات سفري وأنا أتناول  
التمر الفاخر بين رشقات القهوة العربية العتيقة بقاعة  
فاخرة من قاعات كبار الزوار، لتقلني الطائرة الفاخرة أيضاً  
بمقاعد الوثيرة أنا ورفقاء الرحلة من الصحفيين ومذيعي  
بعض القنوات التليفزيونية إلى مقصدنا وهدفنا.

وخلال رحلة الذهاب ونحن نخلق بين السحاب اتفقنا  
على التعاون في إعداد الرسالة الصحفية التي سنرسلها  
لصحفنا كل يوم، واتفقنا أيضاً على الأهم، وهو تنظيم برنامج  
ترفيهي ننفذه كل ليلة، وعزمنا عزمًا أكيدًا على استغلال  
أكبر وقت ممكن من الرحلة في قضاء وقت ممتع، مستغلين  
فرصة وجودنا بعيدًا عن أجواء العمل الصحفي الروتيني  
المرهق.

وعندما هبطت طائرتنا الإماراتية على أرض مطار العاصمة  
عمان، وجدنا فريقًا من الخارجية الأردنية ينتظرنا بترحاب

شديد، وجلسنا بصخب حوارنا الصحفي المعتاد في قاعة كبار الزوار.. حتى انتهت إجراءات دخولنا الأردن التي لم تأخذ إلا دقائق، بعدها نقلتنا سيارات مرسيدس فارهة إلى الفندق الشهير بقلب العاصمة، كان ذلك قبل العصر بقليل.. واستكمالاً لمظاهر الاستقبال والحفاوة البالغة، وجدت نفسي أمام جميلات حسناوات يقدمن لنا كل التسهيلات والتيسيرات الممكنة؛ الأمر الذي زادني قلقاً من أنني فعلاً لن أحقق أمنيّتي في إعداد موضوعات صحفية تحدث قدرًا من الرضى لي في تاريخي المهني، واستسلمت للواقع المائل أمامي.. وقلت «خلاص خيلني أنبسط بلا صحافة بلا وجع قلب».

جلست أمام إحدى الجميلات وهي تنهي إجراءات إقامتي بالفندق، وشغلني مظهرها البراق وابتسامتها الحلوة، ولكنها الأردنية المرحة التي زادتها ودًا عندما عرفت بمهنتي الصحفية كأني كائن ملائكي هبط عليها من السماء، وتحدثت كثيرًا دون أن أنصت أو ألتفت لكلماتها، فكيف ألتفت لحوار تنطق به شفاه وردية بطعم الرفاهية التي تحيط بي من كل صوب!

وأحبطني الرجل الصارم الذي أخذ حقيقتي من يدي  
عنوة وحملها بخطوات مسرعة نحو المصعد، وهو يشير لي بأن  
أتبعه، وتركني هناك وحيداً وبرفتي كل وسائل الترفيه في  
الجناح الملكي، حينها مات لدي كل أمل في مهمتي الصحفية  
المتبغاة.. وضحكت بصوت عالٍ مستسماً.

حينها سمعت صوت الهاتف الجاتم فوق مكتب كلاسيكي  
صغير يصرخ منادياً، أسرعت نحوه مليئاً النداء المبالغت  
لأسمع صوت زميلي المصور الهمام يوسف الأمير يطلب  
مني النزول لتناول الغداء، أسرعت بتغيير ملابسني متوجهاً  
إلى بهو الفندق على أمل لقاء فتاتي المتيمة بمهنتي.

وهناك انتظرنا باقي الزملاء حتى حضر الجميع، كان تجمعنا  
لافتاً لكل زوار ومقيمي الفندق، وتسارعت وتيرة وحدة  
الحوارات المتبادلة بيننا، التي دارت كلها حول الاقتراحات  
الجيدة والممكنة لاستغلال أيام الرحلة والاستمتاع بها،  
واتفقنا على أفكار طموحة نستكمل بها ما نعيشه من رفاهية  
هي عمر رحلتنا الصحفية.

وتوجهنا لغزوة الغداء الذي تناولناه بنهم شديد فضح  
جوعنا اللافت، ونحن جالسون على موائد متلاصقة قريبة،  
ونحن نستكمل حواراتنا عن كيفية قضاء رحلتنا، وقبل أن  
نتهي من غدائنا، أخبرنا أحد أصدقائنا من فريق الهلال  
الأحمر الإماراتي أننا مدعوون على عشاء بمنزل السفير  
الإماراتي في الأردن، بحضور شخصية إماراتية محببة للجميع،  
دون أن نخبرنا من هي!

في الحقيقة لم نهتم كثيرًا بمعرفة تفاصيل دعوة العشاء،  
ولا من هي تلك الشخصية المحببة، فقط شغلنا أن خطتنا  
لتفقد شوارع العاصمة عمان هذا المساء قد باءت بالفشل،  
فما نحن نرتبط بلقاء بروتوكولي رسمي، ظنناه مملًا عاديًا  
مثل تلك اللقاءات الكثيرة التي تعودنا عليها بحكم عملنا  
الصحفي.

أسرعت بعد تناول الغداء إلى جناحي الفندق الفاخر  
لأنال قسطًا من النوم، ونمت وقتها كثيرًا من شدة التعب  
والإرهاق، وصحوت لأرتدي ملابس حسب الموعد المحدد  
لتجمع الرفقاء، الذين أخذوا يعلنون عن قلقهم من ضياع

الرحلة في لقاءات مملة بلا داع، وتدخلت لأخبر الجميع بأنه لا داعي للقلق، فما زال أمامنا وقت طويل وساعات أطول للاستمتاع بالرحلة.

وجاءت الحافلة التي ستقلنا إلى اللقاء الموعود، وصعدنا الأتوبيس الصغير، وجلسنا نتحدث في حوارات متداخلة لم تنقطع، ونحن نشاهد باهتمام معالم وشوارع العاصمة عمان، وسط تعليقات ساخطة على الليلة التي ستضيع في لقاء روتيني.

وفي منطقة راقية بإحدى ضواحي عمان، توقفت السيارة بجوار فيلا منمقة من الخارج، تحيط بها الأنوار الخافتة وتزينها الأشجار التي تحيط بكل المباني في الحي الأرسقراطي الشهير لتستقبلنا مظاهر أكثر حفاوة وكرمًا.

وعندما نزلنا من السيارة، وجدنا السفير الإماراتي الدكتور عبد الله ناصر العامري في مقدمة مستقبلينا بابتسامة وترحاب شديدين، وجلسنا جميعًا في المجلس الرحب ونحن نحسني القهوة العربية التي تختلف نكهتها باختلاف الأمكنة

والأزمة التي تُحتسى خلالها، وأظن كثيرًا أن طباع ومزاج مقدها تؤثر بلا ريب في مذاقها.

وبين رشقات القهوة والحوار الممتع الدائر بيننا وبين السفير الإماراتي حول الأوضاع الملهمة والصراعات التي تشهدها منطقتنا العربية، والتحديات التي تواجه مخططات وبرامج تقديم الدعم اللازم للاجئين السوريين العالقين في المنطقة الحدودية مع الأردن، طلت المفاجأة السعيدة، الفنان الإماراتي حسين الجسمي يخترق مجلسنا بأدب وبابتسامته المعهودة.

صفقنا حينها من فرط سعادتنا بالمفاجأة الجميلة، وتبادلنا جميعًا النظرات مبتسمين فرحين باللقاء الذي كنا قلقين بشأنه وغير مرحبين به باعتباره مضيعة للوقت ليس إلا؛ لتتحول مشاعرنا القلقة إلى حالة من الرضى والقبول اللافت.

قلت لزميلي الجالس بجواري: ما أروع الليلة! حظينا بحوار سياسي رائع، وتقابلنا مع الفنان المحبوب حسين

الجسمي، متسائلاً بابتسام: هل كنا سنحظى بمثل هذا الرضى إذا تجولنا في الشوارع والميادين كما كنا نخطط! .. وأجابني بإيماءة أعلنتها ابتسامته الفرحة.

تحدثت في هذه الليلة كثيراً مع الفنان حسين الجسمي، الذي أبدى كثيراً حبه الشديد لمصر وهو يتحدث اللهجة المصرية كأنه أحد أهلها، واستجاب لرغبتنا في أن نسمعه يعني.. وغنى بطرب .. وتغولنا في فرط الرضى والسعادة .. والتهمنا عشاءنا بنفس جائعة سعيدة.

وانتهت الليلة الجميلة بكل ما احتوته من مظاهر الترحاب والحفاوة بوداع السفير الإماراتي لنا مبدياً سعادته بلقائنا وحواره معنا، مؤكداً أن رجال الصحافة بنيان هام في كل المجتمعات التي تشهد التحضر والتطور.

واتفقنا على لقاء في الصباح الباكر سيذهب إليه الجميع، أنا والزملاء وفريق الهلال الأحمر الإماراتي برفقة السفير الإماراتي، والفنان حسين الجسمي، وانطلقت حافلتنا متوجهة مرة أخرى إلى الفندق، ولم تنقطع حواراتنا وكلماتنا المثنية عما حدث في ليلتنا التي تغير حالها بعد أن كانت

تبعث فينا منذ ساعات قليلة الكثير من عدم القبول .

توجهنا سريعًا إلى غرفنا راغبين في الحصول على قسط وافر من النوم بعد إرهاق طويل، دخلت غرفتي وألقيت بنفسي مجبرًا على السرير ونمت، لم أعرف متى تسلل إليّ النوم ولا متى استغرقتني، وصحوت مبكرًا على رنين منبه الهاتف، ارتديت ملابسني سريعًا، وحملت حقبتي الصغيرة والأوراق ونظارتني الشمسية، ونزلت مسرعًا لتناول الإفطار.

وجدت أغلب الزملاء في قاعة الطعام بالفندق يهتمون إفطارهم على عجل، واقتحمت معركة الفطور مشاركًا وبين الأصناف الكثيرة والمداخلات الحوارية حول ما حدث ليلة أمس ضاعت لذة الإفطار عندما تذكرت رفيقتي « كبسولة » ضغطي العالي لأعود مرة أخرى لغرفتي.

توجهت مباشرة خارج الفندق، فقد كانت السيارة تنتظرنا لننتقل نحو مقصدنا، محافظة المفرق الواقعة على الحدود مع سوريا، ركبت الحافلة، وحييت السائق الذي بدا ودودًا للغاية، وانطلقت حواراتنا التي لا تنتهي قبل تحرك السيارة.

كان الطريق طويلاً بصورة غير متوقعة بالنسبة لنا، حرصت على الجلوس بمفردي حتى أتمكن من فحص ملامح الطريق والأماكن والقرى التي سنمر بها، وتصوير ما يشد انتباهي، كان الطريق بعد أن خرجنا من حدود العاصمة مقفراً، صحراوياً على جانبيه إلا من بعض التجمعات البدوية الفقيرة التي ترعى الغنم وتعيش في خيام تنقل من حين لآخر.

وجدت لافتة كبيرة على جانب الطريق تشير إلى أننا على مقربة من محافظة المرق الملاصقة للحدود مع سوريا، طلبت من السائق سريعاً أن يبطئ من سرعته كي أتمكن من تصويرها؛ مما أثار حفيظة بعض الزملاء الذين أخذوا يسخرون من تصرفي بدعابة؛ لأرد أنا بقولي صارخاً: « إنها المهنية أيها الساخرون ».

كنت أحاول أن أجد موطأ قدم ومساحة حتى أجد فرصة تمكني من إعداد موضوع صحفي ذي قيمة، حتى وإن ندرت الفرص لتحقيق هدي، وعزمت على تنفيذ نظريتي الفلسفية في الحياة « فن الممكن » مستغلاً كل المتاح كي

أصنع منه بعض ما أمل.

وبين دردشات وكلمات الزملاء، أثّرت الخلافات بشأن ما حدث ويحدث في بلدان الوطن العربي على امتداده الشاسع، وما أطلق عليه زيفاً وخطأً بـ « الربيع العربي »، لتظهر في حينها وفي مفارقة غريبة لافتة عريضة في طريقنا مكتوب عليها « محطة الربيع العربي لغسيل وتشحيم السيارات » لتهبط علينا موجة عاتية من الضحك والسخرية والهذيان.

وتبارى كلُّ في تفسير ما يهدف إليه صاحب الورشة من هذا الاسم، وأجمعنا على أن الرجل ربما يريد الاستهزاء بحركات التحرر والثورات العربية، أو أنه يريد أن يقول بأن هذه الثورات تحتاج لتعديل وصياغة وترتيب حقيقي لقيادتها، وهو الأمر الذي يتضح في كلمتي « غسيل » و« تشحيم » وهما الآليتان المهمتان لقيادة أي سيارة، ورغم إجماعنا أو اختلافنا، فقد طرح الرجل المسألة الوجيهة والضرورة الهامة وهي متطلبات القيادة بنجاح.

وبعد مرور أكثر من ثلاث ساعات في الطريق نحو  
المبتغى البعيد، لم تنقطع فيها التفسيرات والتحليلات  
والحوارات التي خفت عنا طول الرحلة، وصلنا إلى المدينة  
البعيدة « المفرق » وبعد أن تجاوزنا بيوتها البسيطة بأمتار  
قليلة انخرفت سيارتنا قليلاً، وسارت ببطء حتى توقفت  
تماماً.

وسرنا برفقة أعضاء فريق الهلال الأحمر الإماراتي في طريق  
ضيق لنحرف يساراً لنجد أنفسنا أمام المستشفى الميداني  
الأردني الإماراتي، وجدناه خلية عمل، بعض شباب الهلال  
الأحمر يرتب عمليات وإجراءات توزيع المواد الإغاثية،  
والآخر يتلقى طلبات مساعدة، وآخرين يعملون في تقديم  
التيسيارات لدخول المرضى وذويهم من اللاجئين السوريين.

انشغلنا في الحصول على تصاريح صحفية من كبار مسؤولي  
الهلال الأحمر الأردني والإماراتي، ومعهما ممثلو مفوضية  
شؤون اللاجئين، وبعد أن انتهت من العمل الروتيني  
الصحفي، انزويت جانباً، وأخذت أتطلع نحو المشهد غير  
المتوقع، فرق تعمل بكد وعزيمة للمساعدة، وأناس تقطعت

بهم السبل، ارتسمت على وجوههم مأس رأيتها شاخصة بقوة.

وهنا أدركت أن رفاهية الرحلة لن تطغى على كل أوقاتها، وأن توقعاتنا قد ذهبت أدراج الرياح ، وتيقنت بالضرورة أنني لن أحتاج إلى إعمال أو تنفيذ نظريتي الخالدة «فن الممكن» فقد لاحت في الأفق مشاهد تنبئ عن قادم سيفرض نفسه بقوة على من يشاهده، واقع تحتم علي مهمتي الصحفية أن أوثق ملاحظه وأحداثه، وأدونه باهتمام.

وبعد رحلة العودة من المنطقة الحدودية إلى مكان إقامتنا في العاصمة عمان في هذا اليوم وباقي أيام رحلتنا الصحفية التي استمرت لأربعة أيام، تبدل شأنها تمامًا، ولم يعد في وسعنا ولا مقدرتنا النفسية أن ننفذ أي برامج ترفيه؛ فها هي مشاهد وروايات البؤس والإحباط تسيطر على كل الأجواء؛ لنكتفي بالبرنامج الروتيني الذي وضعه مسؤولو الرحلة.

أما أنا، فقد وجدت نفسي أمام عوالم أخرى غير تلك التي ظننت أنني ربما قد أراها.. شاهدت حالات إنسانية

أفزعني وألمتني كثيرًا، وسمعت روايات إنسانية مفجعة  
أحدثت بداخلي شرخًا عظيمًا، أظن أنه سيظل شاخصًا  
في كياني طالما صدى صوت هؤلاء الضحايا ما زال عالقًا  
في ذاكرتي وهي تروي قصص معاناتها من القصف والقتل  
والدمار الوحشي.

علاء البدرى

دبي - أبريل ٢٠١٢

## وكانت البداية

لاجئون، أو نازحون، أو تاركون لأوطانهم قسرًا وهربًا من أعمال القتل والتعذيب والدمار في سوريا، كلها مسميات وصفات يُشار إليها في تقارير وأخبار الصحف ووكالات الأنباء العالمية والمحطات الفضائية على أنها مجرد أرقام، رغم كونهم في الحقيقة ضحايا لكارثة لا توصف إلا بكونها وصمة عار سوف تُسجل في تاريخ الإنسانية التي تتغنى ليل نهار بحضارتها وتطورها.

ما أصعب أن تُجبر على ترك البيت الذي ولدت وتربيت فيه! .. ما أصعب أن ترى حوائطه وأحلامك التي زرعتها ببراءة الطفولة وهمة الرجال بين جدرانها تنهار أمامك وأنت بلا إرادة! فقط تجرد نفسك مجرد ضحية لا حول لك ولا قوة.

ما أصعب أن تجد أحداً من أهلك أو ذويك أو قريباً لك، أو جازاً، أو حتى إنساناً لا تعرفه ملقى على قارعة الطريق جثة هامدة، وأن تجده ينزف وهو يصارع الموت ولا تستطيع إنقاذه أو حتى تقديم أي مساعدة له! لأنك ببساطة ستنال مصيره نفسه برصاص قناص لا يعرف الحق ولا العدل ولا الإنصاف، ولا حتى ماذا تعني الإنسانية.

كارثة إنسانية أن يُهَجَّر الأطفال بدون إرادة منهم أو من ذويهم؛ ليصبحوا بعد رحلة الهروب الصعبة مجرد أرقام في إحصاءات المنظمات الدولية كنازحين، ما الذنب الذي اقترفوه ليشاهدوا جثث أقاربهم مشوهة وملقاة في كل مكان! ما ذنبهم حتى يجدوا أنفسهم فجأة بلا مأوى! فقط خيام تم تشييدها على أرض صحراوية قاحلة تسكنها الأفاعي والعقارب والحشرات.

بأي حق يعيش هؤلاء الصغار هم وأسرهم في العراء الموحش بلا أي حقوق، وهم يحملون في صدورهم خوفاً قاتلاً على ذويهم العالقين هناك في الوطن، وكرهاً للعالم أجمع الذي ترك ضميره خارج قاعات الاجتماعات المغلقة، وتركهم

يُقتلون ويُعذبون من دون اكرثات، فبأي حق يُهجرون؟!  
وبأي حق يقتلون؟! وبأي حق يقال عنهم أطفال لاجئون؟!

فاطمة ودارين وسارة وآمنة وعمار وإلهام ومرام وعلي،  
وغيرهم كثيرون، أمثلة حية وحكايات مؤلمة، ومأسٍ مفعجة  
لأطفال في عمر الزهور، نزحت عائلاتهم السورية إلى منطقة  
المفرق الأردنية الحدودية مع سوريا، هربًا من أعمال القتل  
والهدم والتعذيب التي يمارسها النظام السوري تجاه شعبه  
دون تفرقة بين الشيوخ والنساء والأطفال . .

وغيرهم كثيرون، التقيتهم خلال مهمتي الصحفية إلى منطقة  
المفرق الحدودية، التي استمرت حوالي مائة ساعة قضيتها  
منصتًا لروايات وقصص درامية، أبطالها أقل ما يقال عنهم  
إنهم ضحايا لجنون بشري، وإبادة إنسانية يمارسها نظام وفرق  
وجامعات لا تعرف غير الدم والتوحش .



## فاطمة

فاطمة .. هذا هو اسمها الذي لا أستطيع أن أنساه رغم مرور عامين منذ أن التقيتها هناك، في هذه المنطقة الحدودية النائية الموحشة التي تسكنها العقارب والثعابين، نبتت فيها أعشاب بين حجارة وصخور مائها القسوة والظمأ الذي لا ينحسر إلا في فصل الشتاء القارس.

وجدتها وهي عالقة مشردة على الحدود الأردنية السورية كلاجئة بلا مأوى بسبب دنس الكبار وشورور المؤامرات والسياسة التي أجبرتها أن تسكن خيمة بالية بلا وتد ولم تجد غير العراء تلتحف به.

أوجعتني كلماتها وهي تسرد لي قصة هروبها من القتل والقصف والتشرد والضياع.. تاركة وراءها أمها وأخوتها وجثة أبيها الذي قتل غدراً تحت أنقاض منزلهم العتيق

دون أن تعرف مقبرة باسمه سيدفن بها، ولا أي مصير ينتظر أمها وأشقاءها الثلاثة نادر ومحمود وعلي، الذين حملوا السلاح مثل الكثير من الشباب هناك رغم سنهم الصغير دفاعاً عن قضية وطن أصبح بمرور الوقت مكاناً وملتقى لصراع قوى الشر في العالم.

إنها فاطمة، صاحبة الكلمات المؤلمة .. فاطمة الفتاة الصغيرة التي أثارت انتباهي عندما اقتربت من الخيام التي تم تشييدها في أجواء قاحلة بلا خدمات أو مرافق، وجدتها تنظر إلى الشاحنة التي تحمل المساعدات الغذائية والدوائية بلا اكتراث، ولم تفعل مثلما فعلت باقي قريناتها من الفتيات المهجرات اللاجئات ساكنات الخيام اللاتي أسرعن للحصول على كيس أرز أو دقيق، أو بعض الملابس أو الأغذية.

لم تكثرث أبداً بما تحمله الشاحنة من مؤن ضرورية وهامة؛ فالأمر كله لا يعينها ولا يهتمها .. فكيف تهتم وهي روح مقتولة مذبوحة دون أي مبرر ولا منطق ولا عقل يفهم ما حدث لها ولأسرتها!

وجدت في وجه فاطمة ملامح امرأة كبيرة عابسة بلا روح ولا أمل، لكنها فاجأتني بقولها إن عمرها لم يتعدَّ السبعة عشر عامًا، لم أصدق حينها إلا بعد أن تمنعت كثيرًا في وجهها واكتشفت صدق كلامها، فتاة صغيرة شقراء بملامح ذهبية بلون الشمس، عيناها واسعتان، مليئتان ألمًا ووجعًا رغم أنهما يستحقان كل الحياة وكل الأمل.

أجبرت فاطمة على الرحيل تاركة وراءها كل شيء، حتى جثة أبيها الذي مات تحت حوائط بيتهم الكبير والعتيق، بعد أن تهدم فجأة بسبب صاروخ قذفته إحدى الطائرات التي تجوب سماء منطقتهم ليل نهار، ودون أن يتمكن أحد من أفراد أسرتهما إنقاذه أو حتى منحه حق أن يوارى جثمانه الثرى.

لم يستطيعوا ذلك إلا بعدها بأيام، وفي ليلة مظلمة خوفًا من القصف الأرعن الذي لا ينقطع، وأخبروها بعدها أنهم تمكنوا من استخراج جثته ودفنه في مقبرة جماعية أعدوها خلصة في حديقة حارتهم ضمت جثثًا لضحايا أكثر قُتلوا تحت وابل النيران والقنابل .

روت تفاصيل مقتل أبيها، كانت كلماتها البسيطة القصيرة تقطر حزنًا ووجعًا، وحملت نظرات عينيها كل آلام الدنيا، وقهر الظالم الذي لا يعرف إلا الضعفاء كي ينزل عليهم عقابه دون ذنب اقترفوه، أو جريرة ارتكبوها.

.. قتل أبي، الرجل المسالم الطيب القوي، سند العائلة كلها، وترملت أمي وتيتمت أنا وإخوتي، لا أستطيع نسيان مشهد موته ولا صراخ أمي، خرجنا كلنا من البيت بعد أن حذرنا الجيران من القصف وبراميل البارود ، وأنا جميعًا نحن سكان الحي يجب أن نغادر لمنطقة أخرى أكثر أمنًا، وغادرنا كثيرًا وكثيرًا دون أن نجد أمائًا.

وتأخر أبي داخل البيت كثيرًا كثيرًا ولم يعد حتى الآن، وذهب أشقائي حاملين السلاح بحثًا عن قاتله المجرم الحسيس، وظلت أمي هناك وسط القصف، وجئت أنا إلى هنا وحيدة بعد أن ضاع شمل الأسرة.

قالت إنها تركت أمها وأشقاءها في قريتهم بدرعا، وانضمت إلى خالتها رغمًا عنها بعد أن صممت أمها بشدة

وهي تبكي عويلاً وصراخاً أن تغادر الحي والمنطقة وسوريا كلها؛ خوفاً عليها من همجية الشبيحة الذين يستبيحون أعراض النساء حتى أجساد الفتيات الصغيرات.

.. وخرجت في رحلة الهروب الطويلة التي استغرقت -على حد قولها- ٥١ يوماً رغم قرب المسافة بين المنطقتين الحدوديتين التي تستغرق في الظروف العادية ساعات قليلة، فبين كل متر يسيرونه يختبئون في الجحور وبين الحجارة والصخور النابتة على المنطقة الحدودية بين سوريا والأردن هرباً من القصف ومطاردات أشباح من البشر.

فاطمة لا تفهم الأسباب التي أجبرتها على الهروب من بيتها وقريتها، وأن تترك أسرته، أكدت في روايتها وهي تنظر إلى خيمتها والصخور النابتة في كل مكان أن عائلتها كانت تمتلك بيتاً كبيراً في درعا، به غرف كبيرة وكثيرة، ومكان خاص للطبخ، وحمامان كبيران، وحديقة كبيرة كانت تلعب فيها عندما كانت صغيرة.

وأجبرهم تهدم البيت، والأحداث الدامية المتلاحقة على ترك كل شيء هرباً من طلقات الرصاص والمدافع وأعمال القتل، ليتنقلوا جميعاً وفي كل يوم من منطقة لأخرى بحثاً عن الأمن الذي سرعان ما يغيب.

روت كلماتها هذه وهي تنظر إليّ وإلى المكان المحيط بها، الأرض القاحلة والصخور والأعشاب الصحراوية التي تعودت على الظمأ وانعدام المياه التي لا تأتي إلا نادراً، لتفاجئني بقولها: الآن أنا وأقاربي نعيش في هذه الخيام بلا صنبور، ولا مكان لقضاء الحاجة يسترني أنا وباقي الفتيات، ولا حجرة أغلقها عليّ وأنا نائمة.

وأخيراً.. قالت لي قبل أن تتركني متجهة نحو طفلة صغيرة تبكي بشدة دون أن تكثر بالدمية غالية الثمن التي بين يديه المتسختين والتي حصلت عليها للتو من قافلة المساعدات، كيف ستساعدون أمي وأشقائي في مصيبتهم هناك؟

ألقت سؤالها الملح وهي تشير بيديها إلى منطقة الأسلاك

الشائكة الشاخصة أمامنا، ثم أشارت مجددًا بكتا يديها إلى  
ما بعد الحدود داخل الأراضي السورية، وزادتها بسؤال  
موجع: هل ستجدون لأبي مقبرة تحمل اسمه .. سعدون  
علي عبد الرحمن؟!



## أبو عبيدة

لقد تهدم البيت الذي بنيته بدمي وأفنيت فيه عمري،  
وقُتل الأعمام والأصدقاء بدم بارد، وتشرد الأطفال، وترملت  
نساء عائلتي بلا مبرر أو ذنب .. حدث ذلك ذات ليلة  
دون أن نتمكن من الدفاع عن أنفسنا، جاءنا الغدر خلسة  
وفي أحقر صورته لتتجرع مجبرين مرارة الفقد والضياع ..

واجهنا الموت مرات ومرات بعد أن أجبرتنا يد البطش  
والقتل والانتقام على الهرب .. كانت هذه كلمات « أبو  
عبيدة » وهو يروي حكايته المفجعة.

كان ذلك ذات صباح خلال رحلتي اليومية إلى منطقة «  
المفرق » البعيدة عن العمران والقريبة إلى حد كبير من  
الخط الحدودي الأردني السوري، وفي مكان ناءٍ وصحراوي

على أطراف مدينة الحزن والألم والوجع التي نزع إليها خلال  
الفترة الأخيرة آلاف من اللاجئين السوريين.

رأيهم في المشهد اليومي المتكرر في حالة يُرثى لها، لا يتوفر  
لهم أي من أساسيات الحياة، لا حوائط ولا أسقف، فقط  
يفترشون العراء داخل خيامهم الخمس البسيطة، التي لم  
يجدوا غير قماشها البالي ليحميهم من حرارة الشمس بالنهار  
وبرد الليل، الذي بدأ يشعر به سكان المنطقة .

من بعيد لا يظن الناظر إلى المكان أن المكان يصلح  
للعيش أو السكن، فالمنطقة صحراوية بلا خدمات ولا  
مرافق، أرض جرداء فقط يحيط بها بعض البيوت البسيطة  
التي تسكنها العشائر بمنطقة المفرق، هذا ما ظنناه في  
البداية، لكن عندما اقتربت الحافلة الكبيرة التي تقلنا،  
أصابنا جميعاً الصمت المطبق فجأة، إلا مسؤول الهلال  
الأحمر، الذي أخبرنا أننا وصلنا إلى المكان المنشود، وأنا  
يجب أن نهبط من سيارتنا الفارهة إلى المنطقة الموحشة .

قررت كعادتي حينها أن أتقل بين الخيام التي لا يفصل

بينها إلا بضعة أمتار قليلة، كأن ساكنيها يودون ويرغبون في أن يأنسوا بعضهم البعض، محاولين تحدي وحدتهم وغربتهم، ومواجهة مأساتهم في ترك بيوتهم ووظائفهم وممتلكاتهم، في رحلة من العذاب والخوف من المجهول لا يحملون فيها أي شيء.

.. وتقابلت ساعتها مع حزين الملامح والكلام الرجل المسن « أبو عبيدة » الذي حكى معاناته التي بدت لي في بدايتها كمثل باقي الحكايات التعسة التي سمعتها من أصحابها الهاربين إلى المنطقة الحدودية، لكن نظرة الرجل وملاحه وهو يروي جعلته يستغرقني ولم يدع لي أي خيار غير الإنصات.

فكيف لا أنصت وأنا أمام حالة إنسانية كرهها بعض ممن ينتمون زيفاً إلى البشر، وأفقدوها أعز وأهم ما تتصف به الإنسانية وهي الحياة، كائنات متسخة بالسواد واللامنطق.

وأطال « أبو عبيدة » في حديثه عندما أخبرته أنني « مصري » من الإسكندرية فقد سبق وأن أقام في « أم الدنيا » بضعة شهور منذ سنوات بعيدة وهو في سن صغيرة عند

قريب له، داعياً أن يحفظ الله مصر التي وصفها بأنها قبلة  
العروبة.

وصمم الرجل الحزين أن أدخل خيمته لنشرب الشاي  
سويًا، وقتها لم ألتفت لرفقاء الرحلة ولا الزمن المحدد لنا  
للبقاء في المخيم، ولم يهمني انتهاء موعد مغادرة السيارة  
للمنطقة النائية البعيدة، لم ألتفت ولم أهتم بكل ذلك.

استغرقتني كلمات « أبو عبيدة » وقصة هروبه هو  
وأسرته من أرض الجحيم سوريا، إلى مدينة الحزن والألم  
« المفرق »، وجلست بجواره مستمعًا بإنصات شديد، ولم  
أجد في عينيه وكلماته إلا الحسرة، الحسرة فقط التي تعكس  
ضياح كل شيء.

وبين رشقات الشاي المختلف مثل المكان والكلمات  
التي أسمعها، ورغم ملاحق السكر الثلاث التي سكبها « أبو  
عبيدة » في كوبي، إلا أنني لم أتذوق إلا مرارة. فكيف أذوق  
حلاوة السكر في حوار كله مرارة وتعب!

وصف رحلة هروبهم من الموت بالأعجوبة؛ حيث اضطر

إلى تهريب أسرته المكونة من ١٠ أفراد أغلبهم من الأطفال على ٤ مراحل، خوفاً من البطش والقتل والتنكيل الذي يمارسه الجيش السوري النظامي تجاه السوريين العزل، دون أي تفرقة بين الرجال والنساء والأطفال، الكل هدف للقتل والتصفية ليس في منطقتة «حماة» وإنما في كل مكان في سوريا .

الكثيرون يموتون كل يوم، يُنكل بهم كل يوم، ولا أحد يحرك ساكناً، أما وسائل الإعلام فلا تعلن الحقيقة، فالذي ينشر أو يذاع، أو الذي تبثه وكالات الأنباء العالمية هو مجرد رقم صغير لا يتناسب مع حقيقة ما يحدث .

ويستكمل «أبو عبيدة» حكايته وحكاية أسرته خلال رحلة الهروب قائلاً: إنه اضطر لتهريب ابنه في البداية، ودفع مقابل ذلك ٠٠ ألف ليرة سورية حتى لا يلحقهما الجيش السوري إلى قواته عنوة؛ لأنهما لو رفضا ذلك فسوف يُتُهَمَان بالخيانة وهي تهمة عقوبتها القتل بالرصاص .

وأشار إلى المنطقة الحدودية بيده المتعبة الواهنة، وروى

: كانت رحلة الهروب صعبة وخطرة جدًا؛ فقد بقينا معلقين أنا وزوجتي وابنتاي وأحفادي الصغار على الحدود ٩ أيام كاملة؛ حيث كنا نسير أمتارًا قليلة، ونضطر للتوقف بالساعات هربًا وخوفًا من رصاص قناصة الحدود الذين ينتظرون بشغف أي هارب من سوريا ليردوه قتيلاً في الحال، بالإضافة إلى المدافع التي تسرع بقصف أي سيارة يتم اكتشافها وهي تحاول النجاة هربًا نحو الحدود الأردنية.

يريدون أن نبقى في الداخل الذي تحول إلى خراب، وأصبحت بيوتنا مجرد أطلال تفوح منها رائحة الموت؛ فلقد تهدم كل شيء، ولم تعد هناك أي مظاهر للحياة في شوارعنا، فقط بقايا البيوت المنهارة والمنهوبة، وستظل مشاهد المأساة عالقة في أذهاننا.

يريدون أن نظل بلا بيوت أو حتى مأوى حتى نموت تحت قصفهم ونيران كرههم لنا، وإذا حاولنا الهرب يقتلوننا أيضًا دون تفرقة بين الرجال الكبار أو النساء، أو حتى الأطفال، الكل مستهدف بلا رحمة.

وأكد أن هناك أسراً كثيرة لم تتمكن من الهرب؛ لأنهم لا يملكون الأموال الكافية لدفعها رشاًوى للمسيطرين على الحدود؛ وبالتالي هم أهداف محتملة لكل أشكال القتل والحرق والتدمير .

وحول أوضاعهم المعيشية في هذا المكان الموحش قال: إنهم ٨٢ شخصاً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يعيشون في ٥ خيام بلا أي خدمات ولا مرافق؛ حيث قاموا ببناء الخيام في أرض لمواطن أردني قرر مساعدتهم بمنحهم أرضه حتى يعيشوا فيها مؤقتاً .

ونظر بقلق وخوف شديدين إلى خيامهم الخمس، وإلى الظروف الصعبة التي يواجهونها؛ فالعقارب والثعابين منتشرة في المكان بسبب طبيعته الصحراوية، خاصة أن هناك عددًا كبيراً من الأطفال الذين قد يتعرضون في أي وقت للدغة عقرب أو ثعبان.

لكنه أفصح أنه رغم الحالة الصعبة التي يعيشون فيها بلا أي خدمات ولا أساسيات الحياة، إلا أنها أفضل بكثير من

العيش في ذل ومهانة وبلا كرامة، وأنه يخطط لكي يجد فرصة عمل له ولأبنائه يستطيع من خلالها إيجاد مأوى أكثر أمنًا للنساء والأطفال، بالإضافة إلى إعانتته على تحمل تكاليف الحياة.

وودعني «أبو عبيدة» بنبرة تعسة، وبنظرة عين كلها أسى بقوله: « بنبيكي على حاضرنا لما بنتذكر شغلات الماضي .. شو كانت حلوة هديك الأيام!»

## دارين

بعد رحلة طويلة في يوم آخر من أيام مهمتي الصحفية الحدودية إلى منطقة المفرق القابعة على مشارف سوريا، والتي بدأت من مكان إقامتي بالعاصمة الأردنية عمان، وامتدت منذ الصباح الباكر وحتى بعد رحيل الشمس، زاحمتني خلالها الكثير من مشاعر الإحباط والأسى والرفض لأفعال كريمة يمارسها بعض الطغاة الكارهين للإنسانية ضد بشر كل ما حملوا به هو العيش بسلام.

وصلت إلى المنطقة البعيدة جدًا بمحافظة المفرق، حيث وصلت الحافلة إلى أطراف قرية صغيرة تضم مجموعة صغيرة

من البيوت الريفية المتخامة مع نفسها في صورة تنسق  
تماماً مع المكان المتخاصم والمتباعد عن الكون المحيط،  
هناك وفي هذا المشهد التقيتها ..

التقيت « دارين » التي لم تبرح ملاحظتها ونظرتها ذاكرتي،  
لا أستطيع أنسى كُحل عينها الفريد الطاغي الذي أسرني  
بطبيعته وبرأته .. ما زلت أتذكر ضحكاتنا لي .. ما زلت  
أتذكر كل شيء حدث بيني وبينها وسط ضحكات أهلها  
وزملائي .. ما زلت أتذكر وأنا أسرد قصتها هي وعائلتها.

هناك .. وعندما وصلت أنا والرفقاء من فريق الهلال  
الأحمر الإماراتي وبعض الزملاء من الإعلاميين تملكني  
غضب من نوع آخر .. غضب جديد لم آلفه من قبل  
.. شعرت حينها أن مؤشر ضغطي العالي قد ارتفع إلى  
مستويات قياسية، ولم أتذكر أنني تناولت ريفتي الصباحية  
« حبة الضغط » التي تلازمني منذ ٣ سنوات بعد نصيحة  
شديدة اللهجة أمرني بها الأطباء للسيطرة على تداعيات  
المرض المزعج الذي يصيبني جراء الانفعالات العصبية  
اليومية.

أخذت أتطلع إلى المكان بتمعنٍ شديدٍ خلال جولة قصيرة جدًا سيرًا على الأقدام بدأت من آخر نقطة وصلت إليها الحاوية، لم أجد شيئًا على امتداد النظر؛ مما أثار استغرابي واندهاشي أنا والرفقاء، فقط أخذنا نتبع دليلنا السائر في المقدمة دون هوادة.

ووسط أحجار وأعشاب جافة في أرض، أظن كثيرًا أنها آخر نقطة في الكون المترامي أمامي، كنت أخطو بصعوبة نحو مجهول لا ملامح له على مرمى البصر، وبعد برهة، أحسست فجأة ودون أي مقدمات بظهور بعض الملامح للمكان، والتي اتضححت عندما اقتربنا أكثر، لأجد نفسي أمام منخفض ضيق، وطلت عيناى على مشهد هو أبشع ما رأيت.

وعلى الحافة ظهر ما لم أكن أتوقع رؤيته داخل المنخفض، المشهد عبارة عن مجموعة من كبار السن من رجال ونساء، وفتيان وفتيات صغيرات وأطفال، كلهم يحوم حولهم الضياع، فلا أمل ولا غد يقيمهم ما يتكئون عليه من مجهول، وبعض من خيام سُيدت ببقايا قماش

متهالك يشبه المكان الموحش والأرض القاحلة التي بنيت عليها.

وعندما وطأت أقدامنا المنخفض المنعزل عن العالم، تجمع حولنا كبار السن وفتيان صغار، ولم أجد في المشهد أيًا من الشباب أو الرجال، حينها تحدثوا كثيرًا وهم يصفون حالهم وما تعرضوا له من قتل وتنكيل وهدم بيوتهم، وأخيرًا التهجير ورحلات الهروب الدرامية للغاية.

صبوا غضبهم الشديد على العالم المتقاعس بمواقفه المتخاذلة لقضيتهم، وتداخلت الكلمات والعبارات إلى مسامعي، ولم أعد أسمع الحوار المتداخل من الكل، وانسحبت بعيني ودون أن أدري شيئًا عن الحوار الدائر، وسيطر عليّ المكان بملاحمه المرهقة ومكوناته البشعة التي لا تتسق مع فكرة أن هنا يمكن أن يقيم بشر حالة من السخط الشديد.

سرت بضع خطوات بليدة، وأخذت أحصي عدد الخيام القليلة، هذه واحدة كبيرة، وهذه ثانية مدخلها المهترئ يتسع

لدخول سيارة كبيرة، وتلك ظننت في البداية أنها لا يقيم بها أحد؛ فالجدران التي تحمي قاطنيها عبارة عن بقايا القماش والكرتون، وهذه الرابعة، وتلك الخامسة التي شيدت بعناية وكانت أفضل الخيام حالاً رغم جوانبها المتهالكة، وقتها استغرقت وقتاً طويلاً في حصر الخيام الخمس، وفهم وإدراك ملامح المكان وما يحيط به من وحشة تقبض القلب.

لا أستطيع أن أنسى صندوق المياه المعدنية، والحمام البعيد الذي شُيد بقطع القماش البالي وورق الكرتون وقطع البلاستيك، وتلك الأسئلة التعسة التي دقت على رأسي حينها، كيف يقضون حاجتهم هنا؟! وكيف وكيف؟! وألف لماذا؟! دون إجابة تشفي غليلي من المشهد المروع، ففضلت الهروب من أسئلتى وحمتي.

ابتعدت قدر الإمكان من رفقاء الرحلة، وسرت نحو الأسلاك الشائكة التي تفصل المنطقة الحدودية، وجدها بعيدة رغم أنها شاخصة أمام عيني كخيال مائة يرهب الناظرين.

وحاولت أن أعبر بنظري إلى هناك، إلى القرى السورية الحدودية التي تشهد مزيداً من التهجير بسبب ممارسات القتل والعنف، وحاولت أن أقرب قدر الإمكان من النقطة المسموح بها أمنياً، لم أحصد من قربي إلا واقعاً مريراً بأسايكره الحياة.

وفي لحظة جنونية انتابني فجأة؛ حيث تخيلت حالي أنا وأهلي إذا اضطررنا للعيش في هذا المكان، وأنا نطقن إحدى الخيام الخمس، فلا مكيفات تقينا الحر، ولا تلفاز أشاهد عبره برامج التوك شو والأفلام القديمة التي أحبها، ولا إنترنت أتواصل من خلاله مع الأصدقاء عبر «الفييس بوك» و«تويتر»، ولا تلك الأشياء الأخرى الكثيرة التي لا أستطيع العيش بدونها.

لم يطل تفكيري وتخيلي المجنون إلا بضع ثوانٍ لأعود مرة أخرى إلى واقع يحياه هؤلاء الأناس الذين لم يجدوا غير خيام بالية، ومكان موحش يحميمهم بطش السياسة وظلمها.

قال الرجل العجوز « أبو محمد » إنهم مجموعة من الأسر السورية اضطرتهم الأعمال الوحشية والقصف العشوائي والجنوني لطائرات النظام على بيوتهم وأحيائهم للهروب من منطقتهم « درعا » التي تبعد عن الحدود الأردنية مسافة ثلاثة كيلومترات، وعن العاصمة دمشق ٠٩ كيلومترًا، ومن هناك ظلوا يتنقلون هربًا من قرية لأخرى يلاحقهم الدمار والقنص والاعتقال قاصدين المفرق الأردنية.

واستكمل حديثه وهو ينظر إلى المكان الموحش، وأنهم استقروا في هذه المنطقة بعد رحلة هروب صعبة للغاية استمرت أيام عدة، واجهوا خلالها التضاريس الحدودية العصية دون هوادة، ولم يمهني فرصة ل طرح أسئلتني، ليؤكد لي أن مكان إقامتهم هذا يمثل بالنسبة لهم أعظم الأمان، فهنا وجدوا الأمان، فلا خوف على النساء والبنات الصغيرات.

قال « أبو محمد » بصوت كله حزن وإحباط العالم أجمع : إن حالهم الآن أفضل بكثير مما كانوا يعانونه؛ فهم هنا لا يصحون على موت عزيز أو قريب، أو على تهدم بيت أو صراخ أم أو زوجة، وأن مستلزمات الحياة الضرورية

التي يفتقدونها هنا لا تمثل لهم كارثة مقارنة بكوارث الموت والقصف والاعتقال.

كنت أستمع حينها لكلمات « أبو محمد » باستغراب واندهاش شديدين؛ فالرجل لا يأبه ولا يهتم بالوضع والظروف الكارثية التي أراها بأمر عيني تحيط بهم من كل مكان، فالمنخفض لم يسكنه بشر من قبل، أما مكان إقامتهم فهي خيام مهترئة من القماش البالي، في حين يراها هو قدرًا كبيرًا من الأمان.

وفجأة! .. قطع صراخ صغيرة صمت المكان، وأبعد بيني وبين تلك الأفكار المحبطة الكثيرة التي كانت تدق على رأسي وقتها بلا هوادة، ودون قرار مني، وجدتني أتوجه في خطوات مسرعة نحو الطفلة الصغيرة ذات العام وبضعة أشهر، وعندما اقتربت زاد صراخها أكثر خوفًا وقلقًا من الزائرين الكثر الذين اقتحموا خلوتها وخلوة المنخفض الموحش.

أحسست بضيق الدنيا كلها يهبط على صدري بسبب

صراخ الطفلة الذي صمت فجأة، عندما لاحت لها ملاحي  
وضحكتي وخوفي عليها، فقد شعرت بأنني فتنت بها،  
وعشقت عينيها والكحل الذي يزين نظرتها، وحدث التقاء  
نفسي بيني وبين « دارين » نعم. هذا هو اسمها.

لقد تحقق لي أنا والرفقاء وسكان المنخفض الموحش أن  
« دارين » قد أعجبت بي؛ فها هي تضحك لي أنا وحدي،  
لتتبدل مشاعر الضيق والإحباط التي كانت تسيطر على كل  
الوجوة، فكيف لأحد، أي أحد لا تتبدل نظرتة المتجهممة  
وهو يشاهد ويسمع ضحكة طفلتنا الصغيرة.

حينها تعالت الضحكات والتعليقات حول العشق الذي  
حدث بيني وبين « دارين » فجأة، العشق الذي ارتفع  
مؤشرة عندما حملتها بين يدي، وضحكت أكثر وتألفنا  
وضحكنا سويًا، واندهش الكل بسبب الشعور بالرضى  
الذي حدث بين الغريب القادم وبين الطفلة الصغيرة  
التي أرهبتها نظرات الغرباء.

فرحت كثيرًا بعشق دارين بي، هذا العشق الطفولي الذي

جعلها تستغرقني وتقتحم أفكاري ومشاعري المحبطة جراء  
ما أشاهده وما أسمعه من روايات وقصص مفعجة لأناس  
اضطروهم الحقد والكره الإنساني للهرب تاركين وراءهم كل  
شيء.

وسعدت باقتحام الصغيرة لي، وملاحظها المختلفة المتفردة  
التي لا أستطيع أن أنساها، فما هي صورتها معي وأنا أحملها  
بين يدي التي ما زلت محتفظاً بها تذكراً بهذا الكيان  
الطفولي البريء الذي دنسته أفعال الكبار بما يرتكبونه من  
حق يشعل حروباً وصراعات تتوحش وتتوسع وتلتهم نيرانها  
الكتلة الأضعف من البشر، الأطفال والصغار والنساء وكبار  
السن في تراجيديا سوداء، ودراما لا منطقية ولا إنسانية،  
ملاحظها الموت والتشرد والضياع، إنه الجنون الإنساني في  
أبشع صورته.

فما ذنب الصغيرة أن تفقد أباه دون أن تعرف له مصيراً؟!  
ما ذنبها أن تعيش بلا أب يحنو عليها؟! ما ذنبها أن تعيش  
في مثل هذا المكان الموحش؟! ما هو الذنب الذي اقترفته  
حتى تنام كل ليلة في حضن أمها الصغيرة يلفهما الخوف

والقلق؟! ما ذنب دارين حتى تقف على خافة صراع لا  
يرحم؟!!!!

روت لي أمها ذات العشرين عامًا أنها لا تعرف مصير  
زوجها « سمير » الذي ذهب برفقة بعض الشباب لتوفير  
مؤن ومستلزمات رحلة هروبهم من سوريا عبر الحدود،  
لكنهم لم يعودوا، ولا يعرف أحد ماذا حل بهم.

واضطر الجميع وقتها بعد انتظار طال دون بادرة أمل  
لظهور الشباب المفقودين، واستكملت رحلة الهرب خوفًا  
من رصاص القناصة وبطش حرس الحدود.

وها هي تنتظر قدوم زوجها الغائب كل يوم، أما أنا، فأمل  
خلال كتابتي لهذه السطور أن يكون قد عاد سالمًا لزوجته  
وصغيرته « دارين ».



## عم جاسم

لم أنم في ليلتي تلك إلا بضع ساعات .. فما زالت ملامح صغيرتي « دارين » تلح علي، وضحكت عندما تذكرت تعليقات الزملاء، وضحكت أكثر عندما لاحت لي ضحكتها وابتساماتها البريئة التي خصتها لي وحدي دون الباقين، حاولت وحاولت أن أبرح ما يدق في رأسي من أحداث اليوم ومشاهداته المحبطة، ورغم إرهاق الرحلة وتعبها لم يصلني قطار النوم إلا متأخرًا.

صحت مبكرًا، وقبل الموعد المحدد للقاء بساعتين، ارتديت ملابسني، وأعددت أوراقي كالعادة، وتركت غرفتي الفاخرة في الفندق الشهير بالعاصمة الأردنية عمان، وقررت في بداية اليوم ألا ألتزم ببرنامج أو تعليقات الرحلة التي

يضعها منظموها كل يوم ويبلغوننا بها؛ فقررت ألا أكون برفقة الزملاء عندما نصل إلى غايتنا اليومية، تلك النقطة الحدودية الصماء الداكنة.

وقررت أيضاً ألا أضيع ساعات الرحلة في التكاليفات الصحفية المعتادة، التي لا تستغرق من وجهة نظري أكثر من ساعة على أكثر تقدير، تصريحات خاصة من المسؤولين ووصف بسيط لأحداث وفعاليات اليوم الجديد، ثم كتابة التقرير أو الخبر؛ ومن ثم إرساله على إيميل الجريدة وكفى، أما باقي ساعات اليوم فهي لمشروع الكتاب الذي قررت القيام به منذ الوهلة الأولى التي سيطرت عليّ بمشاهدات حية قائمة لواقع اللاجئين السوريين.

وفي بهو الفندق، وبعد تناولي الإفطار وشرب فنجان النسكافية، وعلى مقعدي الوثير أخذت أتطلع في صباحي الجديد إلى الفتيات الحسنات اللاتي بادلني الابتسامات مرحبات، وكعادتي البريئة، لم أكتفِ بالابتسام، وتحديث مغازلاً لإحداهن في حوار متقطع على مدار أيام الرحلة كلها.

حينها باغت لحظتي البريئة هذه أحد زملاء قائلًا :  
خطبتك تنتظرك اليوم، طالعه باستغراب، وانسحبت  
الفتاة ضاحكة، ولم يمهليني أي فرصة للرد، ليستكمل  
مداخلته واقتحامه الذي جاء دون إرادة أو رغبة مني،  
قائلًا: حبيبتك « دارين».

هنا ضحكت وضحكت، وتبدل شعوري الغاضب  
لاقتحامه لمجسسي البريء مع فتاة الفندق، وقلت : ياه «  
دارين « ما أحلاها طفلة! وما أتعس حالها وحال أمها  
وأهلها! وتملكننا شعور الإحباط مجددًا، وصمتنا صمتًا مطبقًا،  
حتى تجمع رفقاء الرحلة اليومية وانطلقنا إلى وجهتنا المعتادة  
.. الحدود المقفرة التعسة.

لم أجلس كعادتي بجوار « عم عمر» السائق الأردني الذي  
تعودت خلال اليومين الماضيين الاستماع إلى حواراته  
وإجاباته المفصلة والمسترسلة عن أسئلتى الكثيرة حول  
محافظة المفرق، وطبيعتها القبلية، واكتفيت بالجلوس بمفردي  
في المقاعد الأخيرة، وأخذت أفكر وأتدبر أمر يومي الجديد.

كانت جولتنا في هذا اليوم مع فريق الهلال الأحمر الإماراتي الذي كان يقوم بتوزيع المساعدات الغذائية والطبية والبطاطين على الإخوة السوريين اللاجئين إلى الحدود الأردنية، كان مقصدنا اليوم إلى مدينة المفرق نفسها وليست مناطقها الصحراوية المقفرة.

تقابلت معهم هذه المرة في بيوت من حوائط وأسقف حقيقية، وكهرباء ومياه لا تنقطع، كانوا في أحسن حال، أطفالهم يذهبون إلى المدارس، تزورهم القوافل الطبية بين حين وآخر.

ونفذت كالعادة ما كنت أقوم به من عدم الالتزام ببرنامج الرحلة، وبتلك الاشتراطات الأمنية الصارمة التي حددها لنا مسؤولو الرحلة .. وشاهدتُ واستمعت ورصدت حكايات أكثر تعاسة من تلك التي سمعتها، حالات وروايات أكثر قتامة في تفاصيلها المفجعة.

وفي بيت صغير عتيق يتصدره باب كبير من الحديد الذي يملؤه الصدأ، بدا وكأنه لم يسكنه أحد منذ سنوات

بعيدة، عبارة عن غرفة وحيدة واسعة، طلاء جدرانها قديم  
وحمام، وساحة كبيرة بلا سقف، فُرشت على أرضها حصيرة  
من الخوص .. هنا جلست وهنا تحدثت، واستمعت إلى  
رواية « عم جاسم»

وجدته واهناً ضعيفاً رغم بنيان جسمه القوي الذي ينبئ  
عن ماضي صاحبه القوي المؤثر في محيطه الاجتماعي، والذي  
وصفه بلهجته السورية، وبكلمات كلها حزن وأسى: إنه كان  
« أبضاي »، فلم يكن هذا الرجل الضعيف قليل الحال،  
قالها أسفاً حامداً الله على قدره ومشئته.

حملت زوجته الخمسينية أكواب الشاي بالنعناع،  
ووضعتها بجوارنا، وجلست بعيداً هي والأطفال الثلاثة  
الذين كانوا يتطلعون إليّ باهتمام واضح، وجدتها لا تختلف  
حالاً عن زوجها « عم جاسم » فرغم ملابسها التي أنهكتها  
كثرة الغسيل، إلا أنها كانت تبدو أنها امرأة ذات شأن  
لأسرة كبيرة.

كان هذا حالها هي والأطفال الصغار الذين كانوا يرتدون ملابس وأحذية قديمة، لكنها كانت غالية الثمن؛ الأمر الذي يؤكد بجلاء أنهم كانوا يعيشون في يسر.

وروى «عم جاسم» : لقد أجبرتني الظروف على ترك بيتي الكبير، وأسرتي الكبيرة وأهلي وجيراني، وعزوتي في محافظة حماة، فقد تغير وتبدل الحال، فلم تعد المقاهي والأماكن كما كانت من قبل؛ فقد حل الدمار على كل الأشياء بسبب القصف المتصل وإطلاق الرصاص الكثيف.

لم أزل أتذكر البيوت المتهدمة على ساكنيها، والجثث الملقاة على قارعة الطريق وفي الأزقة والشوارع الضيقة، فلا أحد يستطيع الاقتراب من جثة ملقاة على الأرض، خوفاً من رصاص القناصة الذين كانوا يعتلون البنايات وهم ينتظرون بدم بارد فريستهم ليقتنصوها فرحين.

ويستكمل روايته وهو ينظر إليّ وإلى أوراقه بقوله : صدقني يا بني هناك الكثير من القتلى الذين ماتوا حرقاً داخل بيوتهم بسبب براميل المتفجرات التي ألقيت عليهم دون

سابق إنذار، وهناك آلاف الجرحى الذين أزهقت أرواحهم لأنهم لم يجدوا من يسعف جراحهم أو يطبب مرضهم، مؤكداً أنه مهما روى وتحدث فلن يستطيع أن يصف ما يحدث في محافظات ومناطق وشوارع سوريا التي تحولت من أماكن تزدهم بالبشر والحياة إلى مجرد أطلال تسكنها الأشباح، فالوضع مأساوي ومفزع للغاية.

وبنبرة أسي قال وهو ينظر إلى الأطفال الثلاثة الذين اقتربوا منا مستمعين بإنصات: هربت من كل هذا الجحيم خوفاً على زوجتي وابنتي الوحيدة، وأطفالها الذين فقدوا أباهم، الذي قُتل خلال إحدى التظاهرات التي اندلعت ضد النظام السوري منذ عدة أشهر، النظام الذي لم يتردد رجاله في قتل المتظاهرين بلا رحمة أو روية.

وترملت ابنتي في عز شبابها، التي لم تعش مع زوجها، ابن أخي الذي كنت أعتبره ابناً لي الإثماني سنوات فقط، وتيتم أحفادي وهم صغار، وغيب الموت غدرًا أباهم، ولم تمكنهم الأيام فرصة أن يتربوا في كنفه وعزه، وضاع منا كل شيء .. ولم تعد حماة هي حماة، ولا سوريا هي سوريا.

وأصبحت أنا وفي هذا السن الكبير مسؤولاً عن صغار يحتاجون إلى يد وهمة قوية تعينهم على الحياة، وتيسر لهم سبل العيش الكريم، أصبحت فجأة مسؤولاً عن مستقبل أراه بعيداً عني لا أستطيع الوصول إليه، مستقبل أراه غامضاً في ملامحه بسبب واقع عشناه براءحة الدم والقتل.

ولم يأبه «عم جاسم» بالأطفال الجالسين المنصتين وكلهم ملامح تشبه المكان والحوار، واستكمل حديثه بقوله: إنه لا يستطيع أن ينسى أبداً ذلك اليوم الذي جيء فيه بجثة ابن أخيه وزوج ابنته محمولاً على الأعناق، حينها شعر بأن المأساة كبيرة والمصاب عظيم، داعياً الله أن يعينه على تحمله، لكنه لم يكن يظن أبداً أن يتحول الوضع إلى كل تلك المأساة التي طالت كل شيء.

وامتلئت عينا «عم جاسم» بالدموع وهو يصف لي كيف تلقي، وكيف استمع لصراخ ابنته على زوجها الذي قتل بلا رحمة.. وكيف شاهدها وهي تحتضن جثته.. وكيف توارى عن الأعين وهو يبكي حرقه وقهراً.. وأمسك بيدي قائلاً:

«أنا كبرت وسوريا راحت والعيال صغار» وسكت.  
وودعته صامتًا.

obeikandi.com



## سارة

خرجت من بيت «عم جاسم» المكلوم ولا أعرف أين  
أذهب، بعد أن فقدت رفقاء الرحلة وسيارة الهلال الأحمر  
الإماراتي التي كانت تقلنا، ولم أشعر حينها بأي قلق أو توتر  
لفقدان المرشدين .. فكيف أتوتر لمجرد غياب وما زالت  
تدق في رأسي ومسامعي كلمات الرجل المسكين وحكاية  
ابنته التي ترملت فجأة في أحداث لا توصف إلا بكونها  
الحمق والجبروت، والظلم الإنساني في أبشع صورته!

سرت بلا هدف محدد يميناً نحو شارع ضيق ممتد طويلاً  
حاملاً حقيبتى وأوراقى ونظارتى الشمسية التي ترافقني طوال  
الرحلة، كان يتملكني في هذا الوقت شعور غريب من  
القلق لم أعرف كنهه.

الآن أدركت معناه بعد مرور عامين على الرحلة، تيقنت أن قلقي كان نابغًا من أن ما تعرض له « عم جاسم » وابنته ليس ببعيد عن أي منا، وربما يكون قريبًا جدًا وقريبًا للغاية.

تيقنت أن خوفي نابع من تلك الكلمات البشعة التي اخترقت مسامعي حول ما يحدث خلف السياج الحدودي من مظاهر القتل والترويع والتدمير التي طغت على كل شيء، وعدم الاكتراث بجثث أناس قتلوا ولا ذنب لهم في هذه الدنيا إلا كونهم ولدوا وتربوا في هذه الأرض التي أصبحت موطنًا لصراع طائفي وديني يتكالب عليه ساهرة كثر دون أن يحكمه منطق أو عقل.

وعرفت من أصحاب الروايات التي سمعتها أن الصراع الدائر هناك لم يحدث بالصدفة، وإنما هو بفعل فاعلين ومحرضين ومشاركين يبغون مكاسب ومصالح خاصة، وعرفت أن حقوق البشر المطحونين، وآمال الشباب الطامح في غد ومستقبل أفضل قد ذهبت أدراج الرياح.

شباب تحولوا إلى أداة في يد طغاة، وفي يد دول، وأجهزة  
مخابرات وجماعات تخطط لغايات مغايرة تمامًا لأهداف  
وآمال الشباب الساذج النبيل الذي وقع في الفخ وتحول  
من كونه بطلاً وقائدًا لثورته إلى مجرد ضحية في أتون  
التعذيب والهدم والقتل والضياع.

وأصبح التشرد هو السائد الأعظم في البلد العريق  
المتجذر، وأصبح كثيرون من أهله أشتاتًا، وتحولوا إلى مجرد  
أرقام في قوائم اللاجئين على الحدود يتم إحصاؤهم كل يوم.

وبعد رحلات الهروب التي لم تكن أفضل حالًا من  
معاناتهم ومصيبتهم وكارثتهم في وطنهم الضائع الذي لا تنقطع  
فيه أصوات القنابل والرصاص وتهدم البيوت، لم يجدوا غير  
خيام بالية شيدت دون اكتراث على أرض مقفرة، لم ينبت  
فيها عشب ولا نبات إلا بالصدفة الصعبة.

وتيقنت أيضًا من الرواة الهاربين من الجحيم السائد  
خلف الحدود أن حركات التحرر والثورات الوطنية لا بد  
لها من قوة تحميها، وعقل يديرها ويدرك مخاطرها، وفطنة لا

تنساق وراء دعوات مجهولة، وأنها تحتاج لفكر يدير الصراع بحكمة وفق تحديات الواقع وضرورات الحفاظ على مقدرات الوطن وأرواح الناس.

وبين خطواتي البطيئة التي لا تعرف هدفاً ولا مقصداً، تذكرت تلك الثورات التي حدثت في ماضينا القريب.. تلك الحركات التحررية التي نجحت بقدر ما حينها، ورغم التحفظات التي قيلت عنها، لكنها على كل حال لم تشهد تدميراً أو قتلاً مثل الذي نشهده الآن.. تذكرت أنها كانت بعقل يديرها، وقوة تحميها، ولم تكن تسير في طريق مجهول.

وقاطع أفكاري وشرودي صوت ثلاثة أطفال يهرولون نحو كرتهم التي ركلوني بها دون اهتمام، كأنهم يودون إفاقتي من حوار الصامت، بدا لي من صراخهم الطفولي لهجتهم السورية الواضحة.

ومن بعيد لاحت لي سيارة رفقاء الرحلة وبرفقتها سيارة أخرى محملة بالمؤن الإغاثية والبطاطين، يقوم فريق الهلال الأحمر الإماراتي بتوزيعها على الأسر السورية اللاجئة

والمقيمة في المنطقة.

تحركت ببطء نحوهم منشغلاً بلهو الأطفال الذي أعجبني،  
ولم أكرث كثيراً بتحريك القافلة وأنهم في طريقهم للرحيل،  
وعندما اقتربت من البيت الذي تركه الرفقاء وجدته يلوح  
لي مرحباً .. مرتدياً جلبابه البني الداكن متكئاً على عصاه  
القديمة، ممسكاً بيده الجريحة.

نظر إليّ باهتمام واضح وهو يشير إلى اتجاه انطلاق القافلة  
والرفقاء، وعندما وجدني لا أهتم بأمر الراحلين دعاني ملحاً  
لشرب القهوة، واستجبت لدعوته التي أردتها أيضاً بالحاح،  
وجلسنا على رصيف الشارع الضيق بعد أن صممت أن  
نجلس بالخارج تحت أشعة الشمس التي طلّت على  
منطقتنا الحدودية على استحياء كأنها تود ملاحظتنا في هذه  
الأثناء الموحلة بالروايات الموحشة.

لحظات وجاءت حاملة أكواب القهوة الصغيرة وزجاجة  
المياه الباردة، فتاة صغيرة مثل ملامحها، رأيت في ملامحها  
وخطواتها سنوات عمرها التي لا تتعدى الثماني عشرة بأي

حال من الأحوال، ملابسها طفولية لا تتناسب مع المرحلة العمرية التي تخطو نحوها، كأنها تريد أن تداري أمرًا جلدًا عن الناس.

نظرت الصغيرة لي على استحياء، وتركت مجلسنا وأكواب القهوة، ووجدت في ملابسها نجلاً وخوفًا من الأنوثة التي تخطو نحوها.. وكأنها تعرف أن هناك مصيرًا غامضًا لا تريده ينتظرها بسبب هذا القادم من عمرها، ففضلت أن تحبئ أنوثتها بين ملابسها الطفولية اللافتة.

وبين رشقات القهوة العربية وبين انشغالي بصغيرتنا باغتني الرجل بسؤاله: أنت صحفي؟ أحبته مبتسمًا ومؤيدًا للأمر الذي يريده.

وقال وهو ينظر إلى يده الجريحة وعصاه الملقاة بجوارنا: اسمي جابر، أما عن قصتي أنا وأولادي فهي صعبة ومؤلمة لن تتحملها صفحات أي جريدة.

وروى « عم جابر » دون أن أطرح أي سؤال: كنت أعمل سائقًا في سوريا بمنطقة « درعا » كنت أعيش أنا وزوجتي

وابنتاي وحفيدي عمر، في بيت كبير يضم أشقائي كلهم  
وفجأة! ضاعت الحياة من بيننا بعد أن اندلعت الثورة  
وارتفعت وتيرة ممارسات الاعتقال والتعذيب والقتل.

عدت ذات يوم أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة لنجد البيت  
الذي عشنا فيه طوال حياتنا عبارة عن بقايا؛ فقد تهدم  
على ابنتي الكبرى، وحفيدي عمر، وأشقائي وأبنائهم، مات  
الكل تحت أنقاض البيت العتيق، الذي لم نكن نتخيل في  
يوم ما أن نعيش بعيداً عنه أو في مكان آخر غير جدرانها  
وحوائطه التي بنيناها على مدار سنوات كثيرة مضت،  
هي عمرنا كله.. وسقطت على بيت العائلة فجأة براميل  
المتفجرات لتهدم جدرانها وحوائطه ويحترق كل من فيه.

وعلى مدار ثلاثة أيام كاملة تمكنا بصعوبة جداً من  
إخراج الجثث من تحت الأنقاض، فليس هناك قوات أو  
معدات للدفاع المدني التي تعين في مثل هذه الحالات؛  
وهو الأمر الذي زاد من صعوبة وجود ناجين وسط الركام  
واختلطت بقايا ضحايانا مع بقايا الأشياء في مشهد مؤلم  
أحسنا فيه بضعفنا وهواننا وقلة حيلتنا.

وفي اليوم الرابع، قمنا بدفن الضحايا في مقابر جماعية أعدناها في إحدى ساحات الحي؛ لأننا لم نتمكن من الوصول إلى مقابر الأجداد والآباء خوفاً من طلقات المدفعية ورمصاص القناصة، الذين ينتظرون بفارغ الصبر أي تجمع ليكون هدفاً سهلاً للقنص وللقتل.

واستكمل « عم جابر » روايته قائلاً: وبعد أن قتل أهلنا، وتهدم بيتنا الوحيد أخذنا نتنقل من منطقة لأخرى، ومن حي لآخر، ومن بيت لبيت بحثاً عن الأمان الغائب الذي كان يضيع بين ليلة وأخرى بسبب الاعتقالات وأعمال القتل والتدمير.

كانت تباغتتنا خلال الأحداث المتسارعة المروعة وجوه غريبة لم نألفها من قبل في سوريا، جنسيات غير عربية لم تعش بيننا من قبل، ولهجات وألسنة لم نسمعها من قبل، ولم نعرف من أين أتوا، ولا لماذا هم بيننا الآن؟ .. وتفرقنا نحن أبناء الوطن والأرض الواحدة بسبب خلاف لم نعرفه من قبل.

كانت تتعالى أصوات ونبرات وجوه، ولحى مشعرة طويلة  
تطالبنا بالقصاص ومحاربة الكفرة الذين يقتلوننا، حينها لم  
أهتم كثيراً لأنني لم أفهم حواراتهم وشعاراتهم الدينية التي لم  
نكن نسمعها من قبل في مساجدنا أو حتى مجالسنا العامة  
أو الخاصة، لغة جديدة لا تعرف التسامح، كلمات تحض  
على العنف والقتل باسم الدين.

واستغل الغرباء المآسي التي تعرضنا لها، وتاجروا بآلامنا  
وأوجاعنا لتحقيق غايات خاصة في نفوسهم، وأصبح العنف  
الذي يغلب على المشهد هو السبب الذي جعل البعض  
يمارس نفس أفعال النظام القاتل بدعوى محاربة الكفر  
والظلم، ودخل شباب كثر مسار العنف، ودخلت سوريا  
كلها في أتون ومحرقه أضاعت كل شيء، ولم يسلم منها إنسان  
أو حتى حجر.

وقطع « عم جابر » إنصاتي الشديد له بندائه على ابنته  
« سارة » طالباً الماء البارد، واستجابت الصغيرة لطلب  
والدها سريعاً، وتيقنت حينها أنها كانت تجلس وراء  
الجدار، وأنها كانت تستمع لكل حرف دار بيني وبين أبيها،

وتمعت النظر إليها مليًا هذه المرة.. وجدتها كيانًا حزينًا.

وعرفت النبأ الصادم.. الصغيرة سوف تتزوج عما قريب من رجل قارب الستين عامًا، يقدم لهم مساعدات مالية شهريًا، وسيقوم باستئجار بيت جديد لهم، لم أتوار حينها عن إعلان تدمري الشديد وصافًا إياه بأنه استغلال لفتاة في مقتبل العمر.

قال أبوها الذي كرهت سلوكه ومبرره الأرعن الأناني ردًا على انفعالي وغضبي : « شو عليه أنو زلمة أبضاي »، كأنه يريد أن يمنحني المبرر بأن العريس رجل مقتدر بلا عيب يمنعه من الزواج.

وقتها.. لم ألتفت ولم أهتم، ولم أدون كلماته حول مشاركاته اليومية في مساعدة الجرحى، وروايته حول تفاصيل حادث إصابته وجروحه الكثيرة التي قيدته عن الحركة والعمل.

لم يشغلني حينها إلا سارة» التي أربكتني جدًّا، وغيرت كثيرًا من نظرتي نحو المشهد الذي أراه شاخصًا أمامي

بقبحه وإجرامه .. « سارة » التي ستقضي صفقة زواج غير متكافئ وغير إنساني على أحلامها وبراءتها بلا رجعة .. حملها أن تعيش وتحيا مثل قريناتها الصغيرات .. حملها أن تتزوج من شاب يشبهها، تعيش معه حياة طبيعية لا صفقة فيها ولا تجارة.

تألمت كثيراً عندما خُيل لي أن الصفقة ستتم، وأن البائع سيقبض الثمن البخس لبضاعته التي لن تدرك مصيرها إلا عندما تتذوق آلام الذبح اليومي على يد المشتري الذي استغل احتياج وضعف البائع، وعرف بمهارة كيف يعقد صفقته الراجحة من وجهة نظره المتعطشة لرغبات بليدة زائفة.

وألمني أكثر وأكثر عندما يصف طرفا الصفقة بأنها زواج، مستغلين فيه قلة حيلة الصغيرة .. ذات الأغصان الخضراء النضرة التي ستجد نفسها فجأة بين يدي رجل ملامحه بالية جوفاء، مثل جذوع الأشجار الميتة، رجل يريد أن يرتوي من نبع لن يمنحه شربة الحياة التي يريدها، رجل يعرف في داخله أنه يتعدى على حق البراءة مثل زمنه الجائع.

« سارة » تعرضت قبلها لمأسٍ وضغوط نفسية كارثية، وفقدت أناساً أعزاء عليها من الأهل والأصدقاء، ورأت جثثهم أمامها، وواجهت ممارسات الظلم والقهر هي وأفراد أسرتهما، وضاع منها مستقبلها التعليمي، وهاهي الآن تواجه نوعاً آخر من أشكال الظلم مرة أخرى من أقرب الناس إليها .. أبيها الذي قرر أن يبيعها في صفقة بثمن بخس .. بخس للغاية.

« سارة » تتعرض لاستغلال حقيقي في أحقر صورهِ وملاحمة العفنة، لقد جاء المشتري واتفق على شراء سلعته مستغلاً حالة الاحتياج والعوز كي يحصل على مبتغاه كصائد محترف يبحث عن فريسة تلبى له ممارسات ذكوريته الضائعة الكريهة بوسيلة أكثر كرهاً يقبلها المجتمع، ولم يجد الأب البائع في فقرهِ إلا ابنته كي يحصل هو الآخر على مبتغاه.

وفشلت كل محاولاتي مع الأب البائع كي أثنيه عن عزمهِ تزويج ابنته الصغيرة ذات الثانية عشر ربيعاً من رجل سطني في شتاء عمرهِ ، فعلته التي لا أصفها إلا بأنها جُرم في حق

لم أجد في نهاية جلستي معه وفي آخر كلماتي إلا قولي له  
إنني سأسعى لدى مسؤولي الإغاثة الدولية كي يقدموا له  
دعمًا كافيًا ومساعدة تعينه على تكاليف الحياة، لم أجد لديه  
أي استجابة لمحاولتي الأخيرة.

كنت أحدثه حينها وأنا أشعر بأنفاس الصغيرة خلف  
الحائط، وسمعت أنينها الخفي، وودت أن لو سنحت لي  
الفرصة كي أربت على كتفها مواسيًا .. وعندما هممت  
بالرحيل رأيتها أمامي شاخصة بعينها الحزينة .. كأنها  
أدركت ما أردت .. واقتربت منها وفعلتها .. وصاغتها وأنا  
أربت على كتفها.

.. وسرت مستسلمًا تاركًا ورأيي « سارة » التي ما زالت  
نظرات عينيها و أساها وحزنها أمام عيني كأني ما تركتها.

obeikandi.com

## علي والصغار

«آمنة» و «عمار» و «إلهام» و «مرام» أطفال صغار يلهون بإصرار وحماس شديدين في ركن الألعاب بالمستشفى الميداني الذي شيده الهلال الأحمر الإماراتي في إحدى المناطق القريبة مع الحدود السورية لتسهيل عملية إجلاء وإسعاف الجرحى، كأنها المرة الأولى أو الأخيرة التي يمارسون فيها اللعب، وجدتهم يتناوبون امتطاء لعبة الأرجوحة، كأنهم يرغبون في القفز إلى السماء وملامسة السحاب، هرباً من واقعهم المؤلم التعس.

عندما اقتربت منهم أكثر، وجدت خلافتهم تشتد بسبب رغبة «آمنة» و «مرام» في الاستحواذ على اللعبة لأكبر وقت ممكن، وكادت الخلافات تتحول إلى تشابك بالأيدي

لولا اقترابي منهم أكثر، محاولاً أن أقلل من حدة الخلاف والصراع القائم الذي سرعان ما انتهى بصعود الصغير عمار إلى اللعبة منافساً.

قالت لي « مرام » ذات السنوات السبع بعد إلحاحي في الحديث معها إنها من منطقة درعا السورية، وأن أباهما قد قتل، ولا تعرف كيف مات، لكنها تعرف أن الذي قتله شبيحة « بشار » - على حد قولها - وأنها رأت منزل أسرتها وقد تهدم مثل أغلب منازل حيهم، وتهدم معه حديقته الواسعة، وأرجوحتها التي شيدها أبوها بين شجرتي تين.

وسألتهما متى حدث هذا؟ .. فهمت من ردها أنه حدث منذ سنة أو ربما شهرين، أو ثلاثة أسابيع، أو ربما عشرة أيام، هذا ما قالته دون أن أتمكن من تحديد الوقت الحقيقي لمغادرتهم سوريا.

لم يكن لديها الوقت الكافي لمحدثتي والاهتمام بي وبأسئلتني الكثيرة، وبالكاد أخبرتني أنها تدرس بمدرسة « صالحة » بمدينة المفرق، وأنها في الأغلب لا تذهب إلى المدرسة التي

لا تحبها؛ بسبب مدرس اللغة العربية والمنهج الصعبة التي لا تفهمها، وأنها لم تذهب اليوم كالعادة إلى المدرسة لمرافقة أمها وخالتها للاطمئنان على شقيقتها «علي» المريض .. وتركتني مفضلة اللعب ومشاكسة رفقاء اللهو.

وجدت ركن الألعاب الذي شيده مسؤولو المستشفى باهتمام، لا يفصله إلا أمتار قليلة عن أحد الأقسام الطبية التي تقدم خدماتها العلاجية لأسر هؤلاء الأطفال؛ حيث يرقد شقيق مرام مريضاً بقسم الطوارئ جراء إصابته بطلق ناري في البطن، وهم في رحلة هروبهم هي وأمها وشقيقتها، وشقيقتها الجريح، كنت أود أن أحكي كثيراً معها محاولاً أن أعرف تفاصيل أكثر عن قصة هروبهم، لكنها كانت تشغل عني دون اهتمام وهي تراحم أقرانها الصغار في اللعب.

أما الصغير المشاكس «عمار» فكان الأكثر تحدثاً واهتماماً بي، رغم كلامه غير المفهوم بسبب سنوات عمره التي لم تتجاوز السبع، إلا أنني فهمت منه بمساعدة «آمنة» أنه ترك بيته في حمص هو وأسرته منذ فترة لم يحددها باليقين، وأنه فقط يريد أن يعود إلى هناك؛ لأن بيتهم جميل به حديقة كبيرة

ومكان للعب الدراجة.

وفي مفارقة غريبة ومفاجئة قال لي عمار مقاطعًا: إن خاله يحارب بشارًا، ليستكمل اللعب مرة أخرى بعد أن رأى «مرام» تستحوذ على الأرجوحة، ودون أن يلتفت إليّ، كأنه يقول لي اذهب ودعني ألعب فقد أعطيتك من وقتي الكثير.

حاولت بشدة أن أشجع «إلهام» ذات الأحد عشر عامًا، وشقيقتها «آمنة» التي تصغرها بخمسة أعوام كي تتجاوزا أطراف الحديث معي، ونجحت في أن أجعل إلهام التي لا تهتم بأحد إلا بشقيقتها الصغيرة أن تقول لي إنهما هنا في المستشفى مع أمهما وزوجة خالهما، الذي يرقد بقسم الجراحة؛ بسبب كسر في قدمه حدث له أثناء هروبهم من درعا.

وحول أوضاع عائلتهما في سوريا، روت لي إلهام أن كل أقاربهم نزحوا إلى الأردن تاركين كل شيء، ولم يحملوا معهم إلا ملابسهم فقط، إلا أن شقيقها ما زال هناك ليحاربا شبيحة

بشار، وأن أهمها حاولت معهما أن يأتيا معهما إلى الأردن، لكنهما رفضا، مفضلين البقاء هناك.

وبعد أن أنهيت حديثي الصعب مع الصغار الأربعة، سعيت للوصول إلى « علي » شقيق مرام الذي وجدته أخيرًا راقداً على سريريه بقسم الطوارئ الملاصق لركن ألعاب الأطفال ، وحاولت أن أتحدث معه، لكن محاولتي كانت صعبة للغاية.

فتي صغير، لا يتعدى عمره الثمانية عشر عامًا، حاد الملامح، لم يكثر كثيرًا بوجودي ولا بأوراقتي ولا حتى بابتساماتي المتكررة له، ولم يهتم بالفريق الطبي المعالج وهم يطببون جرحه، ملامحه ونظراته تأهية، أما ردود أفعاله، فكانت غير مبالية بما يحدث حوله.

قال لي طبيبه إنه تعرض لحادث خطر، ونزف كثيرًا بسبب إصابته بطلقين ناريتين أصيب بهما في بطنه، وأنه الآن في طور الشفاء بعد أن تم إخراج الطلقتين .

ورفض «علي» أن يتحدث كثيرًا، ولم يهتم بأسئلتي،

مكتفيًا بتوجيه لوم شديد للعالم أجمع الذي لم يفعل شيئًا حقيقيًا على حد قوله، فقد قُتل أبوه غدراً وظلمًا دون أن يعرف قاتله، واضطروا لترك بيتهم وحارتهم وكل شيء.

وتمت «علي» كثيرًا بكلمات لم أفهمها، لكنها كانت غاضبة، ثم سكت فجأة من شدة الألم؛ فأشارت لي ممرضته، فودعته متمنيًا له الشفاء على أمل لقاء آخر صباح غد.

وفي اليوم التالي قررت أن أقوم بزيارة خاصة جدًا إلى الفتى المريض، على أمل أن أحظى بقدر من التفاصيل عن حياته، وأن أجد إجابة منه على أسئلة كثيرة كانت تدق في رأسي طوال الليل، وتوقعت أنه سيكون في هذا اليوم أكثر اهتمامًا بي وبأسئلتني.

وصلنا مبكرًا إلى المستشفى الميداني لرصد أنشطة المسؤولين عنه وما يقدمونه من مساعدات طبية وإغاثية للمرضى وذويهم.

وقررت كعادتي ترك الزملاء ومسؤولي الرحلة وعدم التقيد بأي برنامج أو التزام، والذهاب لزيارة الفتى الجريح، ودخلت

بعد استئذان المرضة، ولم أجد «علي».

وعندما سألت .. قالوا لي إنهم استيقظوا مبكرًا ولم يجدوه على سريره، ولم يجدوا متعلقاته البسيطة للغاية.

وتيقن الجميع أن الفتى «علي» قد غادر بجراحه غير الملتئمة، وترك أمه وشقيقاته.. تركهم وقرر الرحيل هربًا من حرس الحدود الأردني هذه المرة، ذاهبًا إلى الداخل السوري.



## ناقل الموتى

لم أجد فائدة من سيارتي التي كنت أنقل بها الركاب من منطقة درعا إلى مناطق سوريا القريبة الأخرى؛ فلم يعد هناك زبائن بعد أن توقفت الحياة، وجدت نفسي مع مرور الوقت أنقل الجرحى والجثث من تحت أنقاض البيوت المهدامة إلى المستشفيات، وحُفرت بداخلي مشاهدات مؤلمة، وملاحم بؤس وتعب لأناس أحبطهم القهر والظلم.

وروى « أبو محمد » الحكاية من أمام بوابة المستشفى الميداني الإماراتي بمدينة المفرق في صباح اليوم الذي كنت مستعداً فيه لمقابلة الفتى السوري « علي » الذي هرب فجأة إلى الداخل السوري، وسط استغراب واندهاش الكل من التصرف غير المتوقع والغريب؛ الأمر الذي أحدث زوبعة بين المسؤولين عن ملف اللاجئين في المنطقة.

في هذا اليوم التقيت « أبو محمد » وجدته في أوائل الخمسينات من عمره، ملابسه رغم أنها كانت قديمة، لكنها

مهندمة للغاية مثل أفكاره المرتبة، لديه حمية كبيرة لتأكيد وكشف وجهة نظره حول حقيقة ما تتعرض له بلدان الوطن العربي من مؤامرات ودسائس بهدف تدمير هذه الدول وتقسيمها.

حواره معي كان رغم مرارة الكلمات التي حدثني بها ورغم الحسرة التي كانت عالقة في لسانه، إلا أنه كان حديثاً منمقاً قوياً، ينم عن ثقافة وقراءة واعية، خاصة عندما أشار إلى النعرة الطائفية التي بدأت تغزو عالمنا العربي فجأة، وتحول الشعب الواحد الذي كان يعيش في تناغم وتراضٍ إلى فرق وجماعات لا تؤمن بقيمة الإنسان بقدر إيمانها بقديسية أفكارها ومصالحها.

وتساءل: كيف تحولت الشوارع والأحياء العربية التي كانت تزخر بالمقاهي وجلسات الرفقاء أمام المنازل في الأمسيات المضيئة بإنسانيتنا إلى ساحات صراع أحق وخلافات يؤججها ويستغلها أصحاب المصالح؟! وكيف تحول الناس البسطاء الحالمون بالحرية والعيش الكريم إلى مجرد ضحايا ومشردين بين الحدود؟!!

كلماته وردوده على أسئلتى كانت رصينة ومحددة لا تتسق  
ومهنته كسائق، التي وصفها بأنها تشبع لديه متعة خاصة  
في نقل الركاب ومصادقة الناس خلال رحلاته اليومية  
المعتادة.

واستكمل حديثه: سيارتي التي كانت تقل الناس إلى  
أشغالهم وبيوتهم، وتنقل الأهل والأقارب والأصدقاء إلى  
المناسبات الاجتماعية والأعراس، وحتى المآتم التي كنا  
نتقبلها بنفوس راضية لأنها قضاء الله سبحانه وتعالى، ولم  
تكن بفعل فاعل يسلب منا الحياة، ويقهرنا ويشعرنا بالظلم  
والمهانة كأننا خراف لا قيمة لها.

تغير حال سيارتي التي كنت أعني بها كأنها ابنة لي،  
تبدلت وأصبحت كسيارة نقل موتى، تفوح منها رائحة  
الدم، وكانت لا تنقطع عن مسامعي أصوات وأنين الجرحى  
وحشرجات الموت الذي كان يأتي أَلْمًا ووجعًا وظلمًا.

لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم الذي تهدم فيه أحد  
بيوت الحي الذي كنا نعيش فيه ليموت قاطنوه تحت

الأقراض، ولم يستثن الموت أحدًا؛ فقد كان الضحايا من الأطفال والنساء والعجائز والشباب، أكثر من ٥٠ ضحية انتهت حياتهم جراء القصف الجوي الغاشم الذي لا يعرف حرمة الحياة.

أسرعنا حينها إلى البيت المنهار المحترق، وأخذنا بكل طاقتنا نحاول إخراج الجثث، وسط بكاء كل سكان الحي الممتزج بصراخ وعويل النساء المنتحبات، أحسسنا نحن الرجال بقهر الدنيا كلها، لم نستطع حتى النظر إلى نساءنا وأطفالنا بعد أن سُلبت منا قدرتنا على حمايتهم.

وبنبرة أسى قال : كانت خمس أسر، أكثرهم من الأطفال والنساء هم أهلنا وجيراننا الذين عشنا معهم وفرحنا معهم وحزنا معهم في أيام لن تعود مجددًا بعد أن مات أبطالها، كانوا أشلاء جثث متناثرة ومتفحمة بين حطام الأسقف والجدران التي انهارت بسبب قوة الانفجار.

مر وقت طويل وساعات أطول، وظللنا على مدار ثلاثة أيام ننقل الحطام بحثًا عن أحياء بين الركام، سمعنا وقتها

أنين جرحى ماتوا دون أن تتمكن من الوصول إليهم في الوقت المناسب، لم نستطع مساعدتهم أو إنقاذهم من الموت المبالغ الذي سلب عنهم حياتهم.

وفي الساعات الأخيرة من البحث عن ناجين، سمعنا أنين بعض من ظل على قيد الحياة، كانوا ينادوننا بصوت يصارع الموت .. الموت الذي لم يستثن أحدًا .. الموت الذي لم يغفل أحدًا، لم تنفهم همتنا لإنقاذهم، كانوا يحتاجون شربة ماء لم تأت لتعينهم على التمسك بالحياة التي رفضتهم دون إرادة منها، فكيف تعينهم وهناك من القتل والمجرمين يتربصون بها!

وروى « أبو محمد » : ما زالت أتذكر حتى الآن ملامح الأطفال الذين اغتالهم يد البطش الظالمة دونما ذنب أو سبب ، صغار انتهت حياتهم وهم نيام على أسرتهن، وهم مستغرقون في أحلامهم البريئة الحاملة، ما زالت ووجوههم ووجوه أمهاتهم وآبائهم المتربة وأجسامهم المحترقة عالقة في ذاكرتي المتعبة المنهكة.

ذاكرتي التي لن يكون في مقدورها بعد الآن، وبعد ما شاهدته من مشاهد كارثية تدمي القلوب، أن تتذكر أي ملاح لسعادة قد تأتي يوماً ما لي أو لأسرتي، أو لأي قريب عاش ما عشناه ، فكيف لذاكرة امتلأت بذكريات القتل والدمار أن يكون لديها مكان جديد لأي مشاهد فرح!

لم نستطع دفن موتانا إلا بعد حلول ظلام يوم تكررت مشاهدته فيما بعد في أيام أخرى كثيرة وفي كل محافظات ومناطق سوريا، ليس درعا فحسب، في هذا المساء لم نجد أكفأنا للموتى .. في هذا المساء تحولت المنطقة كلها إلى سرادق عزاء .. في هذا المساء لفنا القهر والضعف والخوف من قصف صاروخي جديد يهبط علينا فجأة لهدم بيتنا آخر، ويقتل ضحايا آخرين ، من يومها لم ينم أحد منا في بيته.

واستكمل قائلاً : كل البيوت والمدارس مستهدفة بنيران القصف الذي يهبط على رؤوسنا ليل نهار، حتى المستشفيات لم تسلم من الدمار وبراميل البارود، فكم من مستشفى احترق على من فيه من الأطباء والمرضى! وبدلاً من أن يتم تطيب الجرحى خرجوا هم موتى ومن يطبهم.

شاهدت بنفسي وأنا أساعد في نقل الجرحى انهيار عيادة صغيرة كانت مكتظة بالجرحى جراء قصف صاروخي مقصود، حينها لم يخرج ناجٍ واحد حيًّا، كان حادثًا بشعًا وأليمًا أحدث فينا شروخًا نفسية هائلة، وكرهًا لظلم وجبروت نظام يصمم كل يوم أن يرهبنا بقوته وجبروته وخسته.

قال « أبو محمد » بحزن : كنا ننشئ عيادات صغيرة لعلاج الجرحى داخل المحلات أو الأماكن المهجورة، أو في مستودعات بعيدة عن أعين النظام الذي لا يتورع عن فعل أي شيء لإرهابنا، كان رجاله ينتقمون منا أشد انتقام وبلا رحمة؛ فقد حصلوا من النظام على تصاريح مفتوحة للقتل والحرق والحراب.

حاولت أن أخفف عنه بقولي إنها إرادة الله سبحانه وتعالى، فرد عليّ حازمًا حزينًا: لا يرضي الله أن نقتل ونحرق وأن تضيع حياتنا، لا يرضي الله أن يتيم الأطفال ويشردوا، ليس من العدل الذي طالبنا به الله سبحانه وتعالى أن تتحمل نساء صغيرات أو يفقد رجل زوجته وأولاده ويجدهم

أمامه مجرد جثث وأشلاء.

وليس من العدل أيضًا أن نتحول بين ليلة وأخرى إلى مجرد أشخاص مشردين وهاربين إلى الحدود، نعيش نصف حياة في الخيام، ونأكل من المساعدات التي تأتي يومًا ولا تأتي عشرة، أي حق نملكه الآن؟ .. فكل حقوقنا مهدرة ضائعة.

وقال بكلمات أكثر تعاسة سمعتها بغضب ما زال عالقًا في صدري حتى هذه اللحظة: ليس من الإنصاف أن تُستغل فتياتنا .. بناتنا الصغيرات يتم بيعهن في معسكرات اللاجئين لمن يدفع أكثر في شكل مهور هي في الحقيقة أثمان لسلع أُجبرت على أن تقبل ذلك الذل كأننا في عصور ظلامية جاهلية.

## هروب

وجدته عابساً شاردًا .. يجلس دون اهتمام وبلا مبالاة على صخرة كبيرة مستوية مدببة الحواف، وبيده غصن شجرة قذفته الرياح إلى المنطقة القاحلة، يعبث بلا اهتمام بما هو تحت قدميه من حصى ومخلفات صغيرة، يرتدي جلبابًا مهترئًا، ما زال أثر لونه الأبيض الداكن عالقًا في قاشه القديم.

عندما سألته عن اسمه لم يجب، وبعد إلحاح اعتبره بلا مبرر، قال لي: لا يهم .. أنا مثل هؤلاء من ساكني هذه الأرض الميتة .. لا قيمة لي ولا اعتبار؛ فلا أحد يهتم، ولا يدرك أحد حجم المأساة التي نتعرض لها، أنا وأسرتي، وغيرنا كثيرون، تعرضنا ومازلنا نتعرض لإبادة وتهجير.

وقال في استسلام: اعتبرني مجرد لاجئ وهارب من بحيم لا يطاق وممارسات عنف متعمدة ممنهجة، يمارسها القاتل ليل نهار .. أنا سوري هارب من وطنه الذي ولد ونشأ فيه

.. أنا وأبنائي وزوجتي، هربنا من القصف والقتل والقمع ..  
هذا هو كل ما في الأمر .. لاجئ بلا اسم أو عنوان.

ورغم حالة الزحام والضوضاء اللافتة التي شهدتها منطقة  
الخيام بسبب قافلة المساعدات الإغاثية التي كانت برفقة  
حافلتنا، وتنقل أعضاء فريق الإغاثة بين الخيام لتوزيع  
المؤن المختلفة، ورغم قيامهم بتدوين أسماء المقيمين في المنطقة  
لإرسال مساعدات دورية فيما بعد.

لم يهتم الرجل، ولم يلتفت، وظل مستغرقاً في شروده، ممسكاً  
بغصنه القديم الذي لم يتركه من يده طوال حديثه معي  
إلا عندما تحدث عن رحلة هروبه من درعا إلى المنطقة  
الحدودية، حينها كسره بيده الغاضبة ملقياً بقاياها بعنف،  
متخلياً عن رفيق شروده إلى الأبد.

وروى عن رحلة الهروب ما لم أكن أتوقع سماعه: قُتل من  
كنت أرافقه الحياة بجلوها ومرها .. مات صديق عمري،  
وابن عمي، وزوج شقيقتي بعد أن اخترقت رصاصة قناص  
رأسه بلا رحمة ..

فقدت رفيقي فجأة في رحلة حاولنا بها أن ننقذ حياة نساءنا وأطفالنا، ظننا وقتها أننا بهذا الهروب من القصف والقتل والدمار يمكن أن نجد فرصة أخرى لحياة أكثر أمناً.. وأرضاً غير تلك الأرض التي أصبحت مرتعاً لقتلة ومخربين بلا قلب ولا حتى عقل، اتخذوا من العنف الأعمى المجنون وسيلة لإرضاء نفوسهم العفنة المريضة.

طالنا الموت حتى ونحن في طريق الهرب، لم يتركنا ولم ينسنا وكان لنا بالمرصاد، كأنه أقسم ألا نهناً بما خططنا له.. كان برفقتنا طوال الطريق مثلما كان معنا هناك في أرض الدمار التي انهارت مبانيها وبيوتها على ساكنيها العزل الأبرياء.

وقال حزيناً: كان برفقتي صديق عمري « أبو محمد » وشقيقي وأولادها الثلاث وزوجتي، بعد أن تركنا وراءنا كل شيء نمتلكه، فلم نخرج من درعا إلا بأقل القليل من الملابس، وصرنا في طريق الهروب نحو الحدود الأردنية، كان يقود سيارته وراء السيارة التي كنت أستقلها أنا وأسرتي.

لاحظت خلال سيرنا المتقطع البطيء اختفاء سيارة « أبو محمد »، وانتظرنا طويلاً دون قدومه، لم أعرف كم من الوقت مر حينها، وكم من الدقائق انقضت! كان انتظاراً رهيباً ومخيفاً لي ولزوجتي، وتربص بنا الخوف والرهبة من مجهول نعرف ملامحه وإجرامه.

فقررت الرجوع للخلف، رغم مخاطر العودة كي أطمئن عليه، ومن بعيد وجدت السيارة واقفة، تخيلت أنه حادث تصادم، وعندما اقتربنا سمعنا صراخ شقيقي وأولادها .. وشاهدت ابن عمي مضرجاً في دمائه بعد ان اخترقت رصاصة معلومة المصدر رأسه ليموت تارگاً وراءه كل شيء.

واستكمل روايته حزناً وألماً أتعبني وأتعب ذاكرتي التي أنهكتها الروايات التعسة المحبطة، وقال: ظللنا وقتاً طويلاً لا نعرف ماذا نفعل! هل نعود مجدداً، أم نستكمل طريقنا نحو المنطقة الحدودية المبتغاة؟! وماذا نفعل في الجثمان؟!

حاولنا الابتعاد قدر الإمكان من المكان الخطر المستهدف من حرس الحدود والقنصاة، وتكدسنا كلنا في سيارة

واحدة، زوجتي والأولاد وشقيقتي التي ظلت تحتضن جثة زوجها طوال الطريق الذي طال كثيرًا رغم قصره؛ فكنا نسير خطوة ونتوقف خطوتين، وسط بكاء وصراخ صامت لشقيقتي لن أنساه ما حييت.

كان الرجل يروي بمرارة وحسرة حكايته دون أي تعليق مني، فقط كنت أدون ما يقوله، ولم أمتلك القدرة أو الشجاعة كي أعلق أو أسأل، فقط كنت أقول له : الحمد لله .. ربنا يعوضك و ...

واستكمل حديثه بقوله: الآن أجلس هنا فوق هذه الصخرة وعلى هذه الأرض لا حول لي ولا قوة أو حتى إرادة، أقيم في خيمة مع زوجتي وأولادي وشقيقتي التي ترملت وأبنائها الذين تيتموا في حادث بشع حقيير شاهدوه بأعينهم، وعاشوا ساعاته المؤلمة برفقة جثة أبيهم، عرفوا فيها معنى الذل والمهانة ونحن في طريق الهرب.

أما « أبو محمد » الذي مات غدراً فقد رافقنا بجثمانه الهزيل، ونظرة عينيه المؤلمتين المغمضتين إلى الأبد .. دون

أن يتمكن من وداعنا.. ودون أن يوحي أبناءه، وعندما وصلنا الحدود لم يكن لدي أي هم إلا أن أجد لجنان رفيق العمر المقتول مقبرة، وساعدنا أهل القرية في أن نعطيه حقه الأخير .. حقه في مقبرة لن يعرفها أبناؤه فيما بعد.

## ثلاث فتيات

أُجبرن على أن يعشن في شتات على حدود بلدان لم يزرنها من قبل، وفي ملاجئ وخيام سُيدت بلا اهتمام على أرض فقيرة مقفرة لا حياة فيها، وأُجبرن قبلها على اتخاذ طريق الهرب خوفاً من ممارسات بشعة لا يتورع أصحابها في فعل أي شيء بلا إنسانية، تاركات وراءهن قراهن وبيوتهن، ومدارسهن وكل شيء كان له قيمة في حياتهن.

«خلود» و «أركان» و «ريم» ثلاث فتيات في عمر الزهور، يرتدين ملابس واسعة ريفية، يدارين وجوههن وشعرهن بأغطية لا تتناسب مع أعمارهن الصغيرة، كأنها محاولة لستر ما تفضحه الخيام الممزقة، ورغبة لإبعاد العيون عن ملامح أنوثة قادمة أصبحت وبالأعلى عليهن.

تتراوح أعمارهن ما بين الثانية عشرة والسادسة عشر على الأكثر، وبرغم أعمارهن الصغيرة، إلا أنه بدا على وجوههن ونظرات أعينهن مشاعر الإحباط والخوف والقلق والريبة من مصيرهن المجهول، حاملات في ذاكرتهن الصغيرة مشاهد مروعة من القتل والدمار.

التقيتهن ذات صباح لم تُر شمسه ساطعة كما تعود كأنه ينبئني بأن خطبه مختلف عن باقي الصباحات المشمسة التي مرت علي في مهمتي الحدودية، كان ذلك في اليوم الثالث، عندما وصلنا إلى المنطقة البعيدة وجدتها مجهولة الملامح، يلفها القلق والرهبة من كل صوب، ومن رائحة المكان التي تبعث في النفس مزيداً من الرهبة.

أدركت أنه يوم مختلف عن سابقه، وعلى الرغم من توقعي أنني سوف أسمع وأشاهد مآسي وأحزاناً أخرى مثل تلك التي مرت علي في اليومين الماضيين، إلا أنني وجدت واقعاً صعباً للغاية على أرض فقيرة بعيدة لقرية صحراوية، بيوتها متباعدة لا تعرف الألفة، بلدة غريبة مثل اسمها « خشاع سليتين ».

«خلود» و «أركان» و «ريم» يعيشن في خيام مكشوفة، قاشها بال، ولا تستر جوانبها الممزقة شيئاً بداخلها، لا أشجار ولا شوارع، ولا أي مظهر من مظاهر الحياة البسيطة والطبيعية المألوفة، فقط أرض قاحلة خطيرة ملامحها صعبة عابسة، تسكنها الأفاعي والفئران، فلا أمان فيها.

لكنهن أشدن في روايتهن لي بما يقدمه أهل القرية القريبة من مساعدات بسيطة؛ فقد ساعدنهم أهل الخير وأصبحن لأسرهن خيام بدلاً من المبيت على الأرض، وأصبحن للأسر المقيمة في المنطقة مكان يقضون فيه حاجتهم بدلاً من العراء، وأصبح لهم خزان من المياه .

وتحدثت الفتيات الثلاث باستحسان حول التغيير الإيجابي الذي طرأ على حياتهن بعد وصولهن إلى هذه المنطقة الحدودية، إلا أنني لم أر أي تغيير، مندهشاً من كلماتهن، رغم إدراكي إلى أن ما يعيشنه الآن لا يقارن بما تعرضن له من قبل من ممارسات القتل والخراب.

فما زال الواقع الذي شاهدته في هذه الملاجئ المكشوفة  
جائماً على صدري، فكان قضاء الحاجة بلا حوائط ولا  
باب، فقط ستائر من القماش المهترئ القديم، أما الصنبور  
فقد كان متدلياً من وعاء بلاستيكي قديم، ويُعبأ بالماء الذي  
يتم نقله من خزان المياه البعيد، لم أجد مظهرًا من مظاهر  
الأمان، فقط اللهم إلا أن ساكني هذه الخيام لن يجدوا  
صاروخاً هابطاً من السماء فجأة ولا رصاص قناصة تريد  
حياتهم، لذلك اعتبرت الفتيات أن حالهن أكثر أماناً عن  
ذي قبل.

وروت «خلود» ذات الخمسة عشر ربيعاً أنها اضطرت  
لترك مدرستها في «درعا» منذ عدة شهور بعد أن تم قصفها  
خلال النهار؛ فقررت أمها ألا تذهب إليها مجددًا خوفاً  
عليها، وأخذت تنتظر وتنتظر ربما يجيء يوم ما تعود فيه إلى  
فصلها الدراسي وزميلاتها وكتبها، لكن للأسف، لم يأت هذا  
اليوم مرة أخرى، ولم تذهب خلود إلى مدرستها القديمة أو  
أي مدرسة أخرى.

بعدها تكرر مشهد الإجبار مرات كثيرة، ولكن بملاح مختلفة أكثر ضراوة وأكثر ألماً؛ فقد أجبرت على أن تترك بيتها بعد أن تهدمت أغلب البيوت الملاصقة له، وخوفاً من شبيحة النظام الذين يعتقلون وينهبون ويحرقون أيضاً بممارسات كارهة غاضبة من الناس العزل، وأخذت تنتقل هي وأسرتها من منطقة لأخرى ومن مأوى لآخر.

وبنبرة صوت تعس للغاية قالت: إنها الآن تعيش برفقة بعض من أفراد أسرتها وأهلها ممن نجوا من الأعمال الوحشية التي وصفتها بأنها الجحيم بعينه، وتقضي كل وقتها في خدمة الأطفال وحمل المياه وغسيل الملابس والأواني.

أما « أركان » ذات الاثنى عشر عاماً، فلم يعد في إمكانها الذهاب إلى أي مدرسة، ولم تعد ترسم اللوحات الزيتية التي كانت تتباهى بها بين قريناتها في مدرستها التي انهارت أغلب جدرانها، والآن هي لا تتعلم، معترفة أن مستقبلها وحلمها في أن تكون طبيبة مثل ابنة عمها قد انتهى بلا رجعة.

وتحدثت بنبرة أكثر خوفاً ورعباً قائلة بأنها جاءت مع أمها وشقيقتها «خلود» وخالتها وعمها وبعض من أقاربها، وتركت هناك في «درعا» أباهما وشقيقها الذين لا تعرف عنهم شيئاً منذ عدة أشهر، بعد أن انقطعت الاتصالات بينهم، وأنها تتمنى أن تتحدث إليهم لكي تطمئن على حياتهم.

وألتمني «ريم» التي لا يزيد عمرها عن الستة عشر بكلماتها المؤسفة، وتحدثت الصغيرة : لم أتمكن من اللحاق بأبي وأمي وجدتي بعد أن فروا إلى الحدود التركية، خوفاً من أن يتم اعتقال أبي على يد شبيحة النظام، وباءت كل محاولاتنا في أن نعيش معاً بالفشل.

وقالت إنها وأسرتهما كانوا قبل هروبهم إلى الحدود يتنقلون بين مناطق وأحياء درعا من مكان لآخر، ومن بيت لبيت، ومن شارع لشارع خوفاً من القصف العشوائي بالمدافع وبراميل المتفجرات التي تلقيها الطائرات، التي لا تفرق بين رجل عجوز أو امرأة أو طفل، وأن كثيراً من أفراد أسرتها وأقاربها قد قتلوا وأصيبوا في الأيام الأخيرة .

والآن تنتظر الأيام حتى تلتقي مجددًا بأسرتها، التي تحول أفرادها إلى شتات، وأشلاء ممزقة على الحدود المقفرة التي لا ترحم طفلًا تيمم فجأة، ولا تسعف عاجزًا بطشت به يد الغدر والخسة.. حدود ميتة فقيرة لا تعرف كيف تواسي امرأة ترملت تحت القصف.

وأوجعني انتظار الصغيرة لأمها كل يوم، وأملها في لم شمل الأسرة التي تقطعت بها السبل، وتمزقت ضلوعها وأوصلها بفعل فاعل، لتظل تنتظر ما لا يبقي، فما زالت السياج والأسلاك الشائكة التي يتربص وراءها القناصة مانعًا دون تحقيق الأمل في اللقاء.. ليبقى صدى صوت ريم وهي تتساءل كل مساء متى ستلتقي بأسرتها؟!!

هذا هو الواقع المر الذي تعيشه الصغيرة «ريم» التي تصحو كل صباح بنفس مرهقة تعب، لا حول لها ولا قوة، لتجد نفسها بين جدران من القماش البالي الذي لا يستر، ولا يمنح أمنًا في خيام دُقت أوتادها على أرض لا حياة فيها ولا إنسانية.

obeikandi.com

## وماذا بعد ... ؟!

وبعد أن سمعت وشاهدت، وبعد أن كتبت حكايات  
مفزعة وموجعة رواها أصحابها من ملاحظتهم، وبعد ما قرأت  
أنت أخي القارئ.. أجدني أنا وأنت سوياً نقف أمام شواهد  
من الخراب والأطلال لكيانات إنسانية هزمت وتمزقت أرباً  
وأشلاءً .. وأجد أيضاً السؤال المنطقي الموجه يدق بقوة  
فوق رؤوسنا جميعاً دون إجابة تشفي غليلنا وتشعرنا بأننا  
بشر، وماذا بعد ... ؟!

وقبل أن أجيب عن « وماذا بعد .. ؟ ! » علينا أن  
نتذكر دومًا ما قاله أبطال أطلالنا، ربما يجيء يوم ما أو ساعة  
ما نستطيع فيها أن ننصر لإنسانيتنا المهذرة التي تتجلى في  
كلمات « فاطمة » حين قالت : « قتل أبي الرجل المسلم  
الطيب القوي سند العائلة كلها، وترملت أُمي وتيتمت أنا  
وإخوتي، لا أستطيع نسيان مشهد موته، ولا صراخ أُمي،  
خرجنا كلنا من البيت بعد أن حذرنا الجيران من القصف

وبراميل البارود، وأنا جميعًا نحن سكان الحي يجب أن نغادر لمنطقة أخرى أكثر أمنًا، وغادرنا كثيرًا وكثيرًا دون أن نجد أمانًا».

وقول « أبو عبيدة »: « لقد تهدم البيت الذي بنيته بدمي وأفانيت فيه عمري، وقتل الأعزاء والأصدقاء بدم بارد، وتشرذ الأطفال، وترملت نساء عائلتي بلا مبرر أو ذنب .. حدث ذلك ذات ليلة دون أن نتمكن من الدفاع عن أنفسنا، جاءنا الغدر خلسة وفي أحقر صورته لتتجرع مجبرين مرارة الفقد والضياع ».

ويجب ألا تتناسى ما رواه « عم جاسم » : « لم أزل أتذكر البيوت المتهدمة على ساكنيها، والجثث الملقاة على قارعة الطريق وفي الأزقة والشوارع الضيقة، فلا أحد يستطيع الاقتراب من جثة ملقاة على الأرض، خوفًا من رصاص القناصة ».

وفجيرة « عم جابر » الذي قرر تزويج ابنته الصغيرة « سارة » لرجل قارب الستين عامًا في صفقة بيع مقززة :

«عدت ذات يوم أنا وزوجتي وابنتي الصغيرة؛ لنجد البيت الذي عشنا فيه طوال حياتنا عبارة عن بقايا؛ فقد تهدم على ابنتي الكبرى وحفيدي عمر وأشقائي وأبنائهم ، مات الكل تحت أنقاض البيت العتيق .»

وكلمات « مرام » ذات السنوات السبع البريئة: « إن أباهما قد قُتل، ولا تعرف كيف مات، وأنها رأت منزل أسرتها وقد تهدم مثل أغلب منازل حيهم، وتهدمت معه حديقته الواسعة، وأرجوحتها التي شيدها أبوها بين شجرتي تين» .

وما حكاه « أبو محمد » : « ما زالت أتذكر حتى الآن ملامح الأطفال الذين اغتالهم يد الموت الظالمة دونما ذنب أو سبب، صغار انتهت حياتهم وهم نيام على أسرتهن، وهم مستغرقون في أحلامهم البريئة الحاملة، ما زالت ووجوههم ووجوه أمهاتهم وآبائهم المتربة وأجسامهم المحترقة عالقة في ذاكرتي المتعبة المنهكة .»

ويجب ألا ننسى الفتيات الصغيرات: « خلود » و« أركان

« و » ريم « كيف أجبرن على أن يعشن في شتات على حدود بلدان لم يزرنها من قبل، وفي ملاجئ وخيام سُيدت بلا اهتمام على أرض فقيرة مقفرة لا حياة فيها، وكيف أجبرن قبلها على اتخاذ طريق الهرب خوفاً من ممارسات بشعة لا يتورع أصحابها في فعل أي شيء بلا إنسانية.

ويجب أيضاً أن ندرك أن المأساة السورية قد دخلت عامها الخامس، مخلفة وراءها ألف حكاية و ألف ألف قصة مفجعة لا تختلف في وجعها عن مآسي أبطال أطلالنا التي نقف عندها في هذا الكتاب، فهناك ضحايا آخرون لم نعرفهم، وهناك أكثر من مائتين وعشرة آلاف قتيل، وتم تشريد ما لا يقل عن ٢١ مليون شخص في الداخل والخارج، كما حرمت المأساة ما يزيد عن مليوني طفل من أبسط حقوقهم التعليمية والصحية، وذلك منذ اندلاع الأزمة في مارس ١١٠٢ وحتى فبراير ٥١٠٢.

لم يكن أي مراقب للمشهد السوري عندما اندلعت الاحتجاجات ضد نظام الرئيس بشار الأسد في عام ١١٠٢ أن يتخيل وقوع كارثة بمثل هذا الحجم من الفظاعة؛

فقد حصدت أرواح آلاف الأبرياء، ودمرت البنية التحتية وأغلب المدن والمباني التاريخية، بالإضافة إلى تدمير النسيج الاجتماعي والاقتصادي للبلد العربي العريق، بفعل النظام وأطراف عدة أخرى لم تتورع في أن تقوم بكافة أعمال العنف بما فيها ممارسات الإبادة الجماعية والاختطاف والتعذيب.

وأصبح البلد الشقيق مرتعاً للجماعات الإرهابية التي أتت أفرادها من شتى بقاع الأرض، وتحولت سوريا بمرور الوقت إلى حلبة صراع مصالح تتقاسمه دول وأجهزة مخبرات لا تولي أي اهتمام بقضايا البشر، وتداخلت ملامح الصورة في بعضها البعض، ولم يعد في الإمكان معرفة من يناضل من أجل الحق، ومن يصارع من أجل أجندات خاصة.

وبشيء من التفصيل، يمكن تقسيم قائمة المعارضة السورية المسلحة والجماعات المتطرفة المتواجدة على الأرض هناك إلى أربعة تصنيفات رئيسية، أولاً: تحالفات الشوار الرئيسية، وتضم الجيش السوري الحر، وجبهة تحرير سوريا الإسلامية، وجيش الإسلام، وثانياً: المجموعات المستقلة وتضم: ألوية أحفاد الرسول، وجبهة الأصالة والتنمية، ولجنة دروع

الثورة، وتجمع أنصار الإسلام، ولواء شهداء اليرموك، وكتائب الوحدة الوطنية.

وثالثاً: المجموعات المتطرفة التي تمارس إرهابها وعنفاً على الجميع بلا استثناء حتى بينها البعض، وهي: جبهة النصرة، وداعش، وجيش المهاجرين والأنصار، ورابعاً: المجموعات الكردية، ووحدات الحماية الشعبية.

وبنظرة بسيطة على مفردات تصنيف هذه الجماعات سيتضح لنا بجلاء حجم الكارثة التي تعاني منها سوريا بسبب مجموعات مقاتلة متعددة متباينة في الفكر، لا تتفق على أي هدف، أغلبها لا يحمل هدفاً وطنياً سورياً حقيقياً؛ فهناك الأوامر التي تأتي من قبل الممولين لتحقيق غايات مغايرة تماماً عن الاحتياجات السورية، وهناك أفعال تؤجج النزاع، وتشتت وتمهد مساعي التوصل لحل ينهي الأزمة الطاحنة.

الأمر الذي أوجد واقعاً على الأرض؛ فبعد أن كان الجيش السوري الحر هو الفاعل الأساسي في مقاومة النظام وصد هجماته على المدنيين والسعي لإسقاطه من خلال تكتل

للقوة العسكرية الوطنية، اخترق الصراع جماعات مسلحة متطرفة يتم تمويلها من الخارج، استقطب أغلب أعضائها من أفريقيا وآسيا، وبعضهم جاء من أوروبا وكندا بدعوى كاذبة تدعي محاربة الكفر ونصرة الإسلام.

ومثل هذه المجموعات الإرهابية بالأساس جماعة « داعش » و« جبهة النصرة » ، ليتحول المشهد بعد فترة إلى ممارسات أكثر عنفاً ودموية بسبب الصراع الذي حدث بين الجماعتين الإرهابيتين الرئيسيتين الذي أراه بالأساس خلافاً بين ممولين ليس أكثر.

وبعد هذه التحولات الجذرية على أرض الصراع، تراجع تأثير القوات المعارضة الوطنية المعتدلة لصالح قوى الإرهاب والشر التي لم تتورع في القيام بأعمال القتل والدمار والتعذيب، وهو الأمر الذي استغله النظام السوري لصالحه تماماً، فبدلاً من أن يكون في حالة صراع سياسي مع قوى المعارضة الثائرة ضده، أصبح في مواجهة جماعات إرهابية ذاع صيتها بسبب جرائمها الفظيعة التي تتباهى بها عبر بثها على الإنترنت.

لنجد أنفسنا أمام تحول دراماتيكي دفع الكثير من الدول الكبرى، وبعض الدول العربية الأخرى ذات العلاقة إلى مراجعة موقفها إزاء الحالة السورية، التي تحولت إلى جبل تحطمت أمامه كل محاولات حل النزاع الدائر، لتفشل مبادرات المنظمات الدولية والإقليمية التي سعت إلى التوصل لحل سياسي ينهي أزمة البلد الجريح.

وزادت حدة الصراع، وتشابكت تدخلاته الخارجية التي دعمت كافة أطراف النزاع بالسلح تارة وبالمال تارة أخرى؛ حيث ظهر بجلاء الدعم الإيراني الروسي للنظام الذي رفض تقديم أي تنازلات سياسية بدعوى أنه يحارب الإرهاب، وفي المقابل تحصل الجماعات المسلحة المتطرفة على دعم قوي من بعض الدول وأجهزة مخابراتها للحصول على مكاسب خاصة تبتغي تقسيم الدولة السورية.

ليجد الشعب السوري نفسه وقواه المعارضة الحقيقية المعتدلة بين فكي قوتي الشر، جبروت النظام من ناحية وممارسات الجماعات الإرهابية من ناحية أخرى؛ الأمر الذي زاد من تعقيد الأزمة وإطالة أمدها على كافة

الأصعدة، ولم يعد هناك أي أمل على المدى القريب لنزع فتيل الكارثة التي تتفاقم كل يوم في حرب مصالح، وقودها الناس الضعفاء.

وتشير كل وقائع الأرض وملايساتها وأحداثها إلى دخول سوريا النفق المظلم، فبات مستقبل البلد الجريح في مهب رياح عاتية عنيفة لا ترحم صغيراً ولا كبيراً ولا تعرف حقاً ولا عدلاً، وأصبح أطفاله ضحايا بلا معيل، مشردين ومشتتين على الحدود في ظروف غير إنسانية؛ فلا يستطيعون الحصول على الغذاء أو الخدمات الصحية أو التعليمية بسهولة، وإنما بصعوبة بالغة للغاية تهدد وجودهم في الأساس.

ولم تصل مأساة أطفال سوريا عند هذا الحد فقط؛ فبسبب إخفاق المجتمع الدولي في حمايتهم أصبحوا ضحايا مباشرين لأعمال العنف التي يشهدها هذا البلد منذ اندلاع الأزمة.

وأفادت تقارير ومشاهدات صحفية عدة إلى أن الأطراف المتنازعة هناك يرتكبون جرائم حرب ضد الأطفال الذين

بات وضعهم يثير الصدمة؛ حيث يتم معاملتهم بطريقة غير إنسانية؛ فقد تم قتل أطفال وفتيان عشوائيًا، احتجزوا بلا مبرر أخلاقي أو قانوني، واعتدي عليهم جنسيًا، واستُخدموا في معارك، وخطفوا وعُذبوا وحُرموا الذهاب إلى المدرسة أو الحصول على المساعدة الإنسانية، إضافة إلى تعرضهم في شكل متعمد لهجمات عنيفة.

ووجد الأطفال أنفسهم في مواجهة ممارسات الاحتجاز والتعذيب والاعتداء ، بالإضافة إلى قيام بعض الجماعات المسلحة بضم أطفال إليها في صفوفها، وهي الجماعات نفسها التي أخفقت في حماية الأطفال بشكل ملائم حين كانت تنفذ أعمالاً حربية داخل المناطق المأهولة بالسكان المدنيين.

وعملت الجماعات المسلحة على إعادة إنتاج ما كان يجري في أفغانستان تمامًا، فقد افتتحت مدارس لاستيعاب الأطفال والفتيان وتدريبهم على السلاح والمتفجرات، وألغت البرامج التعليمية الرسمية، وجعلت تدريس الدين والعبادات أمرًا ملزمًا، علاوة على دروس تثقيفية تعبوية

تحت هؤلاء الأطفال والفتيان على القتال والجهاد، وتزين لهم الموت الذي سينقلهم إلى الجنة.

وقامت جماعتا « داعش » و « جبهة النصرة » المتطرفتان بإنشاء مدارس في المناطق التي سيطرت عليها والتي انحسرت عنها سلطة الدولة المركزية، وهي في معظمها مناطق ريفية رعوية، لتخريج أطفال مدربين على القتال واستعمال السلاح، أصبح في سوريا اليوم ما لا يقل عن عشرة معسكرات لتدريب الأطفال.

ولا يخفى على أحد له دراية بسيطة بعلم النفس إدراك أن ما يتعرض له الأطفال في الحروب والنزاعات المسلحة من الاعتداء على حقوقهم وكرامتهم الإنسانية، ومشاهدتهم لأعمال العنف والقتل بشكل بالضرورة صدمة جسيمة للأطفال، وهذا ما يُطلق عليه صدمة الحروب، التي تحمل آثارًا سلبية خطيرة يتعرض لها الطفل، وتشمل مظاهر كثيرة، منها: الخوف والفرع، والشعور بعدم الأمان، واضطرابات النوم التي تصاحبه لفترات طويلة.

وتؤدي هذه الصدمة بالطفل إلى الرجوع إلى مراحل طفولية سابقة، وحمله لمشاعر الغضب والكراهية والحقد والانعزال والاكئاب الشديد؛ الأمر الذي يخلق إنساناً مدمراً ومحطماً اجتماعياً، يعيش في إطار من العقد النفسية التي قد تستمر تلاحقه لعشرات السنين؛ وبالتالي تنتقل بدورها إلى أجيال أخرى، لنجد أنفسنا في النهاية أمام مجتمع مضطرب نفسياً وسلوكياً.

إذن يجب أن ندرك جميعاً أن هناك مخاطر جمة وخطيرة يواجهها المجتمع السوري ككل في حاضره ومستقبله، ومن خلال بروز هذه الشريحة المضطربة نفسياً وجسدياً وسلوكياً، ولم يعد سهلاً إزالة هذه الآثار السلبية، وقد يكون في أحيان كثيرة غير ممكن؛ لأن هناك عشرات الآلاف من الأطفال والفتيان الذين تعرضوا لهذه المظاهر المؤذية من القتل والقصف؛ الأمر الذي يحتاج علاجاً وتأهيلاً نفسياً واجتماعياً ومعرفياً لكل طفل تعرض لمثل هذه المواقف؛ وبالتالي يمكن القول إن هناك تخريباً كاملاً وخطيراً قد حدث لجيل بأكمله.

وبالضرورة وبعد كل هذا .. يجب أن أعتزف وتعترف  
معى أنت أيها القارئ الكريم أن إنسانيتنا التي تطورت  
على مر التاريخ، وبلغت غايات عالية من رفاهية العيش  
لم تفلح في خلق أو تأسيس كيان عالمي من السلم والأمن  
في أبسط صورته.

فقد فشلت حضارتنا الإنسانية المزعومة بامتياز، وطمع  
على المشهد الإنساني كله الحروب والنزاعات وممارسات  
القتل والترويع والإرهاب على نحو أكثر درامية ومأساوية،  
أعمال لا توصف إلا بكونها عارًا لا يعرف الفحش والكره.

وإذا طالعنا مشهدنا الإنساني سندرك بوضوح أننا  
نحن البشر أصبحنا أسرى الغرائز والتوحش والعصبيات  
والأيدلوجيات والمعتقدات العقيمة والمصالح الضيقة دون وجه  
حق؛ الأمر الذي يجعلنا نتساءل ونطرح الإشكالية الكبرى  
.. كيف نستمر في حياة ونحن غارقون في كراهية سوانا؟!  
كيف ونحن البشر المكلفين بالحياة والحب أن تتجاذبنا  
مشاعر الحقد والبغضاء والكرهية؟! وكيف نستمر في  
البقاء ونحن غارقون في أتون كره الآخر تحت عباءة الدين

والقومية والطائفية؟!.. تاركين ومتناسين هويتنا الإنسانية الأعم والأشمل التي تدعونا إلى الحب والتعايش وأن نضياء حياتنا بالجمال.

ليبقى الطرح الأهم في زمن الكره والبغض.. كيف نواجه أولياء الكراهية والحقد؟!.. وكيف نتمسك بإنسانيتنا المحبة في فطرتها للسلام والخير والجمال؟!.. لكن يبقى أيضا وأيضا الأهم بالنسبة لي أنا... أني أحب وطني وأهلي وأعشق أحبائي وأهيم عشقا بأصدقائي الكثر.. فهولاء لا أستطيع العيش بدونهم فهم أكسير الحياة بالنسبة لي. فأنصتوا أحبتي معي لصوت الحب عبر أثير أم كلثوم وفيروز ووقع كلمات شوقي وأبراهيم ناجي وجبران والمازني ودرويش ربما نتطهر من قبح حاملي الرايات السوداء.. من يوميات < > غربتي البعيدة < >... وأخيرا مساء العثل

وقبل أن أنهي خاتمتي، أود بقدر استطاعتي كمراقب للأحداث، وكصحفي شاهد بأمر عينيه على أرض الواقع مآسي ومواجه ضحايا أنهمكم الصراع السوري القاتل أن أجد طرحًا يجيب على السؤال: « وماذا بعد ..؟! »،

في ظل رؤيتي ورؤية غيري كثير أننا نعيش أزمة إنسانية طاحنة تواجه تحديات كبرى أهم ملامحها هذا التطور الهمجى الطاغى واللافت أيضاً الذى يقود البشرية نحو الهاوية.

«وماذا بعد ..؟!» .. هذا هو السؤال الأجدى بالطرح والتمعن، والذى يرافقه تساؤلات عدة لا تقل أهمية، هل نحن فى حاجة إلى تعديل سلوكنا الإنسانى برمته؟! وهل نحن فى حاجة إلى تعلم مهارات قبول الآخر؟! هل نحن فى حاجة إلى خلق حياة وواقع مشترك يتقبل إنسانيتنا سوياً حتى وإن اختلفنا فى اللون أو الشكل أو الدين أو الفكر؟!!

وإذا كنا بصدد الإجابة على السؤال « وماذا بعد ..؟! » يجب أن نعترف أن الجنس البشرى، خاصة المقيم على امتداد وطننا العربى قد أخطأ خطأ فادحاً بسبب انكبابه وسعيه المحموم نحو الرفاهية والتطور المادى؛ الأمر الذى جعلنا أسرى وعبيداً للمنافع المادية الوهمية التى تبدو لنا زيفاً أنها السعادة المبتغاة.

والآن يظهر واقعنا المؤسف شاخصًا وواقعيًا لا شك فيه، تظهر تجلياته المحزنة في الأنانية الفردية أو الجماعية المغلقة، والتمحور حول ثقافة ومعتقد أحادي الفكر تمزق أسمى أهداف الإنسانية التي خلقنا الله تعالى من أجلها، وهي عمارة الأرض والتعايش السلمي الذي يؤمن بقيمة الحياة.

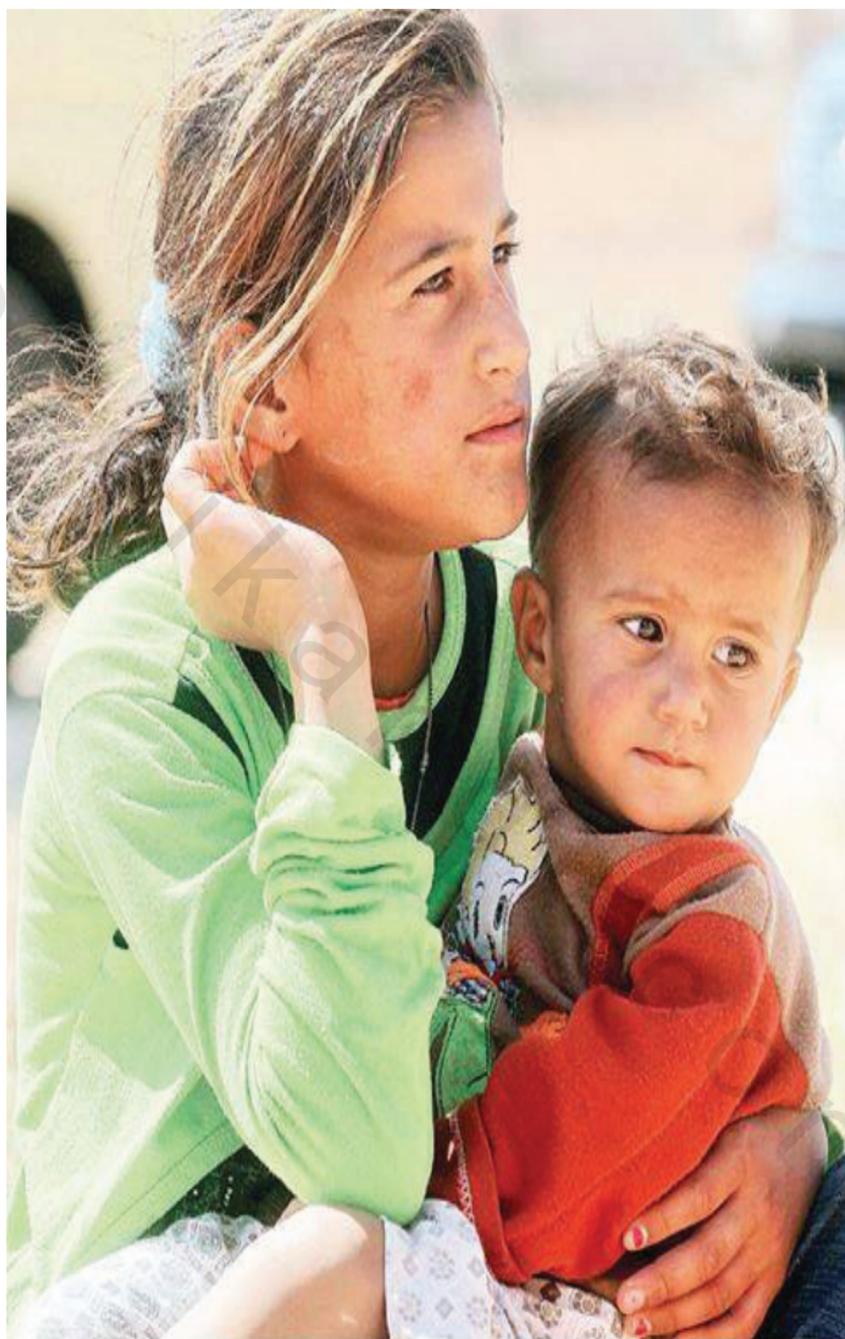
.. « وماذا بعد ..؟! » سؤال يضعنا أمام مرآة حقيقية، هي أننا رغم الحداثة والتنوير وتطور وسائل الاتصال المختلفة، نعيش في جزر منعزلة لا نعرف، ولا تؤمن بأهم معاني الإنسانية وهي الحب والعطف والشفقة والرحمة والسلام.

ويجعلنا السؤال الهام أيضًا أننا في حاجة ماسة وضرورية إلى فهم حقيقي لمفهوم الإنسانية الذي لم ندرك حقيقته السمحة المحبة للسلام، وأن نؤمن حقًا ونضع الحقيقة أمام أعيننا بجلاء أن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا إخوة من أب واحد وأم واحدة مهما تعاضمت الاختلافات والعقائد والأفكار.

ويلح « وماذا بعد ..؟! » الضرورة الهامة التي تتطلب تكاتفًا إنسانيًا ومجتمعيًا يدرك أننا في حاجة لعدة إصلاحات ضرورية تسير في مسارات متعددة، تمزج التحسينات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية في مسار واحد هو « الحياة ».

وأخيرًا .. ينبئني بكل أسف وحزن سؤال « وماذا بعد ..؟! » أن حضارتنا الإنسانية المزعومة والناقصة مجرد مظاهر ومكاسب مادية لا عمق ولا حكمة ولا محبة فيها، فتعسًا وسحقًا أيها العالم القميء .. وعفواً أيتها الحرية وأيها السلام المفقود، عفواً إنسانيتنا الضائعة..





































obeikandi.com

## علاء البدري.. محطات



يعمل صحفيًا بمؤسسة أخبار  
اليوم المصرية، وحاليًا في رحلة  
عمل بدولة الإمارات العربية؛  
حيث عمل لمدة خمس  
سنوات بجريدة «الخليج»  
الإماراتية، وحاليًا يعمل صحفيًا  
بوزارة العمل الإماراتية.

ولد في الثاني من شهر نوفمبر عام ١٧٩١ في محافظة الإسكندرية  
التي تربى ونشأ فيها لأسرة صعيدية تنتمي لمحافظة الأقصر  
بجنوب مصر، ودرس القانون بجامعة الإسكندرية.

بدأ حياته الصحفية عام ٤٩٩١ مراسلاً صحفياً لعدد من الصحف والمجلات المصرية والعربية، وتخصص في كتابة التحقيقات الصحفية، شارك خلال عام ١٩٩١ في تأسيس جريدة أخبار الجمهورية التي ترأس مجلس تحريرها، وتم إصدارها من الإسكندرية، ووجهت أغلب موادها وملفاتها الصحفية لمحافظة صعيد مصر.

اهتم خلال رحلته الصحفية بالبحث والدراسة في إشكاليات الإعلام والتحديات المتعلقة بدوره وتأثيره في التنمية المجتمعية، وفي ذات الشأن، حصل على العديد من الدورات التدريبية المتخصصة في الإعلام والإدارة.

كتب عددًا كبيرًا من التحقيقات الصحفية، وتناول فيها مجموعة من القضايا المحلية والإقليمية، خاصة ملفات الصراعات والنزاعات؛ حيث قام برصد معاناة الضحايا في هذه المناطق الساخنة في عدد من التحقيقات والتقارير الصحفية، وأجرى مجموعة من الحوارات الصحفية مع كبار رجال الدولة والساسة في مصر والوطن العربي.

مثلت القراءة في حياته ومنذ سنوات عمره الأولى دورًا هامًا وكبيرًا؛ فقد ولع بقراءة الروايات والشعر، وشغف كثيرًا بقراءة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ، وتمعن في دراسة ظاهرة الإسلام السياسي في مصر والوطن العربي.

حصل على جائزة وزارة الشباب والرياضة في كتابة المسرح في مسابقة لشباب الجامعات عام ٧٩٩١، عن الدراما المسرحية « تعسا أيها العالم عفوا أيتها الحرية »، وله نصوص أخرى، مثل المسرحية الاستعراضية « مليونير ولا ..؟ »، والنص الكوميدي « قف هل أنت ديمقراطي »، ونشرت له مجموعة من القصص القصيرة في عدد من الصحف والمجلات العربية.

## تحت الطبع:

- «مشاعر».. الحب وقبول الآخر وتحدياتهما النفسية والاجتماعية.
- « ٣ نبوءات » رواية.
- « أفكار نيرة » كتاب إرشادي موجه للشباب.

# الفهرس

٥	فاتحة القول
٧	الرحلة
٢١	وكانت البداية
٢٥	فاطمة
٣٣	أبو عبيدة
٤١	دارين
٥٣	عم جاسم
٦٣	سارة
٧٧	علي والصغار
٨٥	ناقل الموتى
٩٣	هروب
٩٩	ثلاث فتيات
١٠٧	وماذا بعد ... !؟
١٤٣	علاء البدرى.. محطات
١٤٦	تحت الطبع:

رقم إيداع ١٣٥٠٦ / ١٥٢٠١٥ ط١  
الترقيم الدولي / ٣-٠١٦ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨



ليبيت للنشر  
والتوزيع